مختارات من الأدب العالمي للشباب

الآمال العظيمة

Great Expectaions

تشارلز ديكنز

إعداد وتقديم

وفيق صفوت مختار

دار الطلائع

ديكنز، تشارلز، ١٨١٢ - ١٨٧٠

الآمال العظيمة – Great Expectations /تشارلز ديكنز،

إعداد وتقديم وفيق صفوت مختار. – القاهرة: دار الطلائع للنشر والتوزيع، ٢٠١٧ .

١٤٤ ص ٢٠سم. (مختارات من الإدب العالمى للشباب)

تدمك ٦ ٨١٢ ٢٧٧ ٩٧٧ ٩٧٨

١- القصص الانجليزية

أ- مختار، وفيق صفوت (مقدم ومعد)

ب- العنوان ٨٢٣

رقم الإيداع: ٢٠١٧/٤٠٠٣

الترقيم الدولي: 978-977-277-812-6

تصميم الغلاف الفنان: إبراهيم محمد إبراهيم

● جميع الحقوق محفوظة للناشر ●

يحظر طبع أو نقل أو ترجمة أو اقتباس أي جزء من هذا الكتاب دون إذن كتابي سابق من الناشر، وأية استفسارات تطلب على عنوان الناشر.

دار الطلائع

للنشر والتوزيع والتصدير

٣٢ شارع أحمد فخرى

مدينة نصر - القاهرة

تليفون: ٢٣٥٤٦٣٩٢ (٢٠٢+)

فاكس: ٢٣٥٤٦٣٩٣ (٢٠٢+)

E-mail : info@altalae.com

Web site: www.altalae.com

مقدمة

هذا هو الإصدار الخامس من مختارات من الأدب العالميّ للشباب، والذي نُقدِّمه ونحن علي ثقةٍ بأنَّه سيكون بإذن الله تعالي عملاً متميزاً وفريداً في دقة اختياره، وطريقة عرضه.

جاء العنوان الأصلي للرواية باللغة الإنجليزية: Great Expectations، والذي يعني: "توقعات رائعة" .ولما كانت الرواية قد ظهرت مترجمة في عدة طبعات مختلفة، فقد اتخذت عناوين شتي، منها علي سبيل المثال:الآمال الكبري"، و" التوقعات الكبري"، و" التوقعات العظيمة" .وقد ارتأيت أن يكون عنوانها هو:الآمال العظيمة"، وهو العنوان الذي أراه أجمل من غيره، رغم أن كُل العناوين الأخري صحيحة ومناسبة.

ولقد قمتُ بالاطلاع علي أغلب الإصدارات العربيَّة التي تناولت هذه الرواية للكاتب الإنجليزي الكبير "تشارلز ديكنز" بالترجمة، كي يتسنى تقديم الأجمل والأحق بالقراءة الممتعة الشيقة.ولقد كانت الترجمات التي تمكنت من العثور عليها متوفرة بعض الشئ، وكانت ترجمات تتسم بالعذوبة والرقة الشديدة، وكانت في مجملها ترجمات تتميَّز بألفاظها الشيقة، وكلماتها السهلة البسيطة، وقد خلت من المعاني الركيكة إلّا قليلاً.

وكما هو مُعتاد في منهجنا الذي قد ارتضيناه منذ البداية فقد تخلصت من الأحداث الغارقة في التفاصيل التي قد لا تخدم العمل الذي نقدمه. كما حاولت الابتعاد عن الكلمات الصَّعبة التي جاءت في بعض الترجمات.

وبعد هذه المُعالجات الفنيَّة والدراميَّة للرواية أري أنَّها أصبحت مُعدة للقراءة السهلة اليسيرة، في عدد صفحات ملائم للغاية، دون أن يؤدي الاختصار إلي أي خللٍ في مسار الأحداث، أو بنيتها الدرامية.

حافظت بالطبع علي ما جاء في النَّص الأصلي للرواية الذي كان مصدري الرئيس في تقديم هذا العمل، والابتعاد تماماً عن النّصوص التي جاءت منسوخة بشيءٍ من الاختصارات المُخلة إخلالاً أضر بالعمل الأصلي للرواية.

وبهذا أكون قد انتهجت الفلسفة التي نتبناها في دار الطلائع للطبع والنشر والتوزيع بقيادة الكاتب والناشر الصديق" عبد اللطيف عاشور"، التي تُحتم علينا تقديم تلك الأعمال العالمية الفريدة علي أعلي مستوي من الكفاءة، والأمانة، والمصداقية، والشفافية، مع العرض الشيق الرشيق للأحداث، وكذلك الحفاظ علي المضمون الأصلي للرواية شكلاً ومضموناً، وفقاً للترجمات الأكثر رصانة ومصداقية.

كما أود أن أنوه بأنَّ كافة العناوين الرئيسة لفصول الرواية قد تم وضعها بمعرفتي الشخصيَّة، وذلك لخلق نوع من الجاذبية والإثارة التي لابدَّ منها. كما ابتكرت منهجاً جديداً منذ إعداد وتقديم رواية" ذهب مع الريح" وهو أن نُقدِّم بعض الصور التي تخدم النصّ الروائي بشتى الطرق والوسائل. من أجل أن يستمتع القارئ العزيز بأقصى استفادة من العمل الذي نُقدّمه. وسوف نستمر علي هذا النهج من التطوير والابتكار كُلَّما سنحت الفرصة لذلك.

خالص الأمنيات بقراءةٍ ممتعةٍ شيقةٍ.

وفيق صفوت مختار

القاهرة، في نوفمبر ٢٠١٦.

تقديم

"تأمَّل النعم التي تمتلكها الآن والتي يمتلك كل إنسان الكثير منها، ولا تفكِّر في أحزانك الماضية والتي لدىّ كُلّ منا القليل منها"، هذه كلمات أعظم روائي بريطاني، وثاني رجل بين كُتَّاب بريطانيا بعد "وليم شكسبير" William Shakespeare (1564- 1616م).وهو الأديب الذي ترك ثروة أدبية وروائية خالدة علي مرّ الزمان، إنَّه الروائي الكبير "تشارلز ديكنز" Charles Dickens، الذي اتخذ من حياة البؤساء والفقراء والمهمشين عالم خصب لقلمه، نسج أروع الإبداعات الروائية التي تتحدّث عن ضرورة تحسين النظام الصحّي العام، وتربية الجماهير الفقيرة، ومحو الأمية، إنَّه: "الظاهرة الخارقة"، كمَّا تصفه الروائية الأمريكية" جين سميلي" Jane Smiley (المولودة في1949م).

• تجارب الطفولة المريرة..

تشارلز ديكنز

ولد "تشارلز جون هوفام ديكنز" Charles John Huffam Dickens في "بورتسموث" في السابع من فبراير1812م، عاش طفولة مُعدمة فقد كان الابن الثاني من بين ثمانية أخوة، وكان والده موظفاً بسيطاً في البحرية البريطانية، لم يُمكنه دخله المتواضع من أنْ يعول أسرة كبيرة العدد ممَّا اضطره إلي الاقتراض، ولقد حدثت الكارثة الكبرى في عام1824م، عندما كان "تشارلز" يبلغ من العُمْر اثني عشر ربيعاً حيث تم سجن والده نتيجة الديون، لهذا ترك المدرسة وهو صغير، وعمل في مصنع "وارين" لدهانات الأحذية الذي كان يعج بالفئران، وتنتشر منه الروائح الكريهة، فانتابه إحساسٌ عميقٌ بالخذلان.

ولقد خلفت هذه التجارب المريرة في طفولته تأثيراً عميقاً في نفسه، وظلت مختزنة في عقله الباطن، وكوَّنت زخم درامي تحوَّلت بموهبته الفذة إلي روايات عاطفية وساخرة أبكت وأضحكت العديد من القُرَّاء علي مرِّ الأجيال، كمَّا ظهرت جلية في شخصياته الروائية التي كانت دوماً ما تكون محرومة من الطفولة السعيدة.

ديكنز في شبابه

وأثبت "تشارلز" نبوغاً في التحصيل والاستيعاب، وكان يهوي القراءة ويعشق الاطلاع ويُقبل بشغفٍ علي البحث في كُلِّ ما كانت تمتدّ إليه يداه من كتبٍ أو مراجع، سواء أكانت تتصل بمناهجه الدراسية أَو بشتى ألوانِ المعرفة، حتى ثقلت ثقافته ونضجت موهبته الأدبية.

• زواج لم يستمر..وقصة حُبّ لم تجلب له السَّعادة المأمولة :

أحبّ "ديكنز" وهو في الثامنة عشرة من العُمْر فتاة جميلة، ولكنها هجرته بعدما وعدته بالزواج لمعارضة أهلها، ولقد تزوج فيما بعد من "كاترين هوجارت"، ولم يكن الزواج عن حُبّ ولكنه أثمر عشرة أطفال في خلال 15 سنة.وكشفت رسائل "ديكنز" التي حرَّرها ونشرها "جراهام ستوري" عن قصَّة الحُبّ التي عاشها "ديكنز" في المراحل الأخيرة من حياته، والتي تسبَّبت في انفصاله عن زوجته "كاترين"، وهي قصَّة حُبِّه العنيف للممثلة الشابة "نيللي تيرنان" التي لم تُجلب له السَّعادة، بل جلبت له القلق والإزعاج، بعد أن أصبحت حياته الشخصية نهباً لفضول الآخرين، على إثر نشر رسائل خاصة به وبحُبِّه الأخير.

واصل "ديكنز" تعليمه في أكاديمية"ويلنجتون هاوس"، وكان شغوفاً بأدب القرن الثامن عشر، ومولعاً بمؤلفات "وليم شكسبير"، وبدأ في عام1832م العمل الصحفي، فقد هيأت له براعته في الاختزال فرصة للعمل كمراسل صحفي، ومختزل لوقائع الجلسات الرسمية للبرلمان، وكان في الوقت نفسه يُحرِّر بعض المقالات القصيرة في بعض المجلات والصحف.

• الملايين في وداعه الأخير :

كاترين هوجارت زوجة ديكنز

توفى "تشارلز ديكنز" فجأة في شهر يوليو عام1870م وهو لم يتعد الثامنة والخمسين من عُمْره، وعند وفاته بكته إنجلترا كلَّها ومشت وراء جنازته بالملايين، ولم يحظ أي كاتب بهذا التشريف الرسمي والشعبي ..وربما كان الروائي الأكثر شعبية في كُلِّ تاريخ العالم، وفي وقته كان مشهوراً أكثر من أي شخص آخر، بل ويرى البعض أنَّ شهرته كانت تُعادل شهرة الملكة "فيكتوريا "ذاتها .

❊ ❊ ❊ ❊

عالم "تشارلز ديكنز" الروائي والقصّصي ثري للغاية، نحاول الغور فيه علنا نُحيط ببعض جوانبه، ففي عام1836م نشر كتابه الأول"صور تخطيطية لبوز" Sketches By Boz و" بوز" هو اسمه المستعار من أصغر إخوته.وبعد نجاح كتابه الأول أصدر كتاب" أوراق بيكويك" Pickwick Papers، وقد حقَّق له نجاحاً ملموساً وشهرةً كبيرةً، ودرّ عليه أموالاً جعلته منذ ذلك الحين في رغدةٍ من العيش حتى ختام حياته.

تمثال ديكنز

أمَّاقصة"أوليفر تويست"فهي نموذجاًفريداًمن فن "ديكنز" الروائي، كتبها عام 1838م، وهي تُعد من روائع الأدب العالمي، إنَّها قصَّة كلاسيكية، تُرجمت إلى جميع لغات العالم، وتحوَّلت إلى أفلام سينمائية وتلفزيونية، كما مُثلت علي خشبة المسرح، ولاً تزال تُدرَّس في المدارس حتى اليوم.إنَّها قصَّة الصِّراع بين الخير والشر، قصّة طفلٌ بائسٌ توقعه الأقدار في أيدي جماعة من اللصوص فتستخدمه لتحقيق أغراضها الشريرة، ولكنه ينتصر آخر الأمر على مؤامراتها ويعيش حرّاً شريفاً.

وممَّا يُلفت النظر في هذه الرواية، ومؤلِّفها "تشارلز ديكنز" أنَّه ركَّز على شخصية "فاجن" اليهودي البخيل والمجرم، تلك الشخصية التي لا هم لها سوى الحصول على المال، وعن أي طريق كان، وتعمل عملها في هدم المجتمع وقيمه، وهو الأمر المعروف في الأدب الانجليزي كمَّا فعل "وليم شكسبير" في تجسيد شخصية "شايلوك" اليهودي في "تاجر البندقية" .انتهت القصة نهاية سعيدة، بعد أن عاد إليه ميراث أبيه.وقد كتب "ديكنز"، يقول: "تمنيت من خلال شخصية أوليفر الصغير إظهار مبدأ الخير، الذي يحيّا خلال كل الظروف القاسية حتى ينتصر في نهاية الأمر".

رواية ترنيمة عيد الميلاد

ثم صدرت قصّة "ترنيمة عيد الميلاد" في عام1843م، والقصّة تدور بطريقةٍ مسرحيةٍ حول تحوُّل "ابن عزير سكروج" من عجوزٍ متذمِّرٍ شحيحٍ إلي شخصٍ كريم دافئ القلب، ففي أمسية من الأمسيات تظهر له ثلاثة أرواح، يُقدمون له سلسلة من الرؤى التي تجعل "سكروج" يُدرك أنَّ وجوده كئيب وبائس..وتتابع الأحدث في متعةٍ لا تنتهي.

رواية أوليفر تويست

و"ترنيمة عيد الميلاد" هي القصّة الأولي في سلسلة حكايات أعياد الميلاد التي نشرها "ديكنز" فيما بين عامي 1843 1848م، يليها:"رنين الأجراس"، و"الحظ الطيب"، و"معركة الحياة"، و"الرجل الممسوس". وتُعتبر رواية "ديفيد كوبرفيلد" واحدةٌ من أشهر روايات "ديكنز" وأجملها، حيث يرى بعض الكُتَّاب أنَّها تقريباً قصّة حياته . يقول "ديكنز" : "من بين كتبي كلَّها، أُحبّ هذا العمل أكثر من غيره".في هذه القصَّة يصوِّر "ديكنز" حياته الخاصَّة منذ الطفولة وحتى الشباب والشهرة، إنَّها عبارة عن سيرة ذاتية. ظهرت الرواية في الفترة من 1849-1850م.وتدور أحداث

القصَّة حول الطفل اليتيم "ديفيد" الذي تتزوَّج والدته بعد وفاة والده من "ميردستون" القاسي الذي يُعامله بمنتهي القسوة، وتتطوَّر شخصية "ديفيد" ويتزوج من "دورا" التي تموت بعد ذلك، وفي النهاية يجد عزاءه في مستقبله الأدبي، وفي زواجه الثاني السعيد بـ "آجنس".

ويدعو "ديكنز" في رواية "الأزمنة الصَّعبة" إلى تحسين وضع العمال المزري، ويذكر كُتَّاب سيرة "تشارلز ديكنز" أنَّه في عام 1854م حدث إضراب في مدينة "بريستون" الصناعية بشمال انجلترا، فقطع "ديكنز"، بفضوله المعروف، كُلّ الطرق من لندن إلى هناك ليرى ما الذي كان يجري. وفي وقتٍ لاحق كتب هذه الرواية وسمّى المدينة "كوكتاون"، حيث كانت مدينة مداخن طويلة تنتشر منها أعمدة دخان لا متناهية، ونهر يجري ماؤه بلونٍ أرجواني، وبرائحةٍ تبعث على الغثيان، وأكوام هائلة من البنايات المليئة بالنوافذ حيث الضوضاء والقعقعة طيلة اليوم. وربمَّا تكون هذه الرواية هي الأكثر شهرة في الأدب الإنجليزي حول تأثيرات الثورة الصناعية وتشويهها الإنسان.

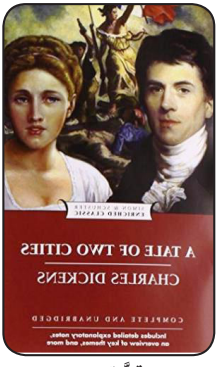

قصَّة مدينتين

وفي عام 1859م نشر "ديكنز" رواية "قصَّة مدينتين"، أي قصَّة باريس ولندن، وقد اعترف فيما بعد بأنَّه كتبها تحت تأثير الناقد والفيلسوف الأسكتلندي "توماس كارليل" Thomas Carlyle (1795-1881م). ويبدو أنَّ كلتا المدينتين كانتا عزيزتين على قلب "ديكنز"، ولكن معرفته بهما لم تكن متساوية، فلندن أقرب إليه بكثيرٍ، يُضاف إلى ذلك أنَّه كان يخشى الثورة الفرنسية وأعمال العنف التي حدثت في مرحلتها الثانية، ولذلك فإنَّ روايته كانت تهدف ضمنياً إلى تحذير الانجليز من القيام بثورةٍ كهذه. يطرح "ديكنز" في قصَّته بحسب النُقَّاد أهمية التضحية، حيث

يُضحي الثوار بكُلِّ غالٍ وثمينٍ في سبيل الحرية التي يدركون صعوبتها، والثمن الضخم الذي سيدفعونه من دمائهم من أجلها. كما يرى "ديكنز" أنَّ الثورة تميل حتماً إلى القمع والعنف، فهو رُغم دعمه للقضية التي استوجبت الثورة، إلاَّ أنَّه يُشير إلى ما يرتكبه الثوار من شرور!!

أمَّا رواية "أوقات عصيبة" التي صدرت في عام 1870م، فهي تحكي عن رجل أعمال ثري يُدعىّ السيد "جراد"، والذي كان لا يعترف بشيءٍ في الحياة لا يندرج تحت قائمة الحقائق المادية أو يخضع للإحصاء والقياس، وقد تربي أولاده وفق هذه النظرية، فقد تزوجت ابنته الكبرى "لويزا" من صديق والدها، ولم تكن كراهيتها لزوجها العجوز أو محبتها له تُشكِّل فارقاً؛ لأنَّها مشاعر معنوية لا تعني شئ.. وتتوالي أحداث القصَّة بتصاعد درامي عنيف، حتى يؤمن السيِّد "جراد" في نهاية المطاف بالحُبِّ والأمل، ويُدرك أنَّ الوقائع والأرقام ليست كُلّ شيء في حياة الإنسان.

• أسلوب ديكنز: ثري بالدُعابة والسخرية، مُفعم بالعاطفة الجيَّاشة :

ممَّا لا شك فيه فإنَّ "تشارلز ديكنز"يتميَّز أسلوبه بالدُعابة والسخرية اللاذعة، وامتازت رواياته وقصَّصه بوصفها الرقيق للشخصيات، وبعرضها الثري للحياة الاجتماعية في مختلف صورها، وبما فيها من نزعةٍ عاطفيةٍ، وانتقاد للشرور الاجتماعيَّة، مثل السجن من أجل الديون، ومماطلات القضاء، وسوء التعليم، وقد عجلت كتابات "ديكنز" بالإصلاح في ميادين كثيرة.تقول الأديبة الأمريكية "جين سميلي" مؤلِّفة كتاب "قصة حياة تشارلز ديكنز":"لرواياته الواقعية جدّاً أهمية تاريخية بالإضافة إلى أهميتها الفنيَّة، ومَنْ يُريد أن يطلع على الحياة الإنجليزية في القرن التاسع عشر فليقرأ روايات "تشارلز ديكنز".

وفي مقارنةٍ عُقدت بين "شكسبير"، و"ديكنز" قال الناقد الأدبي" دايسون":"من بين نقاط المقارنة العديدة والعامَّة اثنتين قد استوقفتاني لأهميتهما الخاصَّة: عدد الشخصيات التي أبدعها كل من ديكنز وشكسبير، والتي أصبحت الآن جزءاً من

التراث الإنساني، وكذلك التأثير الذي تركه كلاهما علي القُرَّاء، وعلي العقول الناقدة.

• روائي دافع عن الطفولة المُعذبة، فأحبته الجماهير :

و"ديكنز" من أكثر المُدافعين عن الطفولة لكثرة ما كتبه عن الظلم الاجتماعي، ومُعاناة الطفل وسط مجتمع لا يستطيع حمايته. وكما قال الروائي الانجليزي "جورج أورويل" George Orwell (1903- 1950م): "لا يوجد علي الإطلاق من كاتب إنجليزي كتب عن الطفولة مثلما فعل ديكنز، الذي كان بمقدوره أن يقف داخل وخارج عقلية الطفل".

تقبَّل الجمهور "ديكنز" وأحبَّه، الذي كان من المستحيل أن يقرأه المرء دون تعاطف، وقد بيَّن لقُرَّائه ما كانوا هم أنفسهم يفكرون ويحسون به، إزاء المشكلات الاجتماعية الكبرى التي كانت تواجههم، وبعبارةٍ أخري فقد كانوا عندما يقرؤونه يكتشفون أفكارهم وأحاسيسهم.

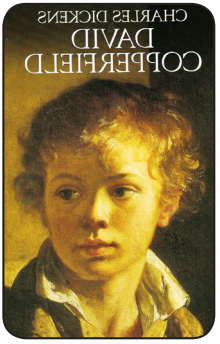

رواية ديفيد كوبرفيلد

لقد كان روائياً شاملاً، وكان عليه أن يستوعب كافة طبقات المجتمع، وكان العالم الذي يخلقه في الواقع عالماً يشتمل علي كافة تنويعات العالم الحقيقي، لقد كان يستخدم الرواية عامداً كمعبر لنقد المجتمع، وقد مكنته الحبكة أن يُصوِّر في مرآة عالمه صورة لمجتمع عصره كلَّه، أكمل ممَّا فعله أي روائي انجليزي قبله أو بعده.

• تكريماً لائقاً لسيد النهايات السعيدة :

في عام 1922م أصبح منزله في شارع "دواتي" مهدداً بالإزالة، غير أنَّ أعضاء رابطة أصدقاء "ديكنز" أصروا علي شراء المنزل والحفاظ عليه كمتحفٍ ومكتبةٍ يؤمها كل مُحبيه ودارسي أدبه، وبالفعل افتتح المنزل الذي أصبح متحفاً في عام1925م.

سيد النهايات السعيدة

ولقد تمت إزاحة الستار عن تمثال للأديب الراحل "تشارلز ديكنز" في مدينة "بورتسموث" البريطانية، بمناسبة مرور 202 عام على مولده، وأقيم التمثال البرونزي، المُحاط بالعديد من الكتب، في ميدان "جيلد هول" في المدينة التي ولد فيها الكاتب الكبير حسبما ذكرت "وكالة أنباء الشرق الأوسط".حضر الاحتفال عدد من كبار الضيوف، من بينهم 40 فرداً من عائلة "ديكنز"، وبلغت تكلفة التمثال 140 ألف جنيه أسترليني.

وحسب ما جاء عن وكالة رويترز في ديسمبر2013م، فقد عرض فيلم "امرأة في الظل" الذي يكشف الجوانب الخفية في حياة "تشارلز ديكنز".وتدور أحداث الفيلم الذي تولى إخراجه الممثل البريطاني "رالف فينس"، حول علاقة الحُبّ غير المُعلنة التي تدور في الخفاء بين "ديكنز" والممثلة "نيللي تيرنان".

❊ ❊ ❊

"الآمال العظيمة" هي الرواية التي تمّ اختيارها لتكون باكورة الأعمال الروائية التي نقدمها للأديب العالمي "تشارلز ديكنز" في هذه السلسلة التي تقدمها دار الطلائع.وقد نُشرت الراوية لأوَّل مرَّة مسلسلة في مجلة "على مدار العام" All the Year Round البريطانية ابتداء من الأول من شهر ديسمبر عام1860م إلى أغسطس 1861 م.وكان "ديكنز" ينشر في كُلِّ مرَّة فصلين من القصَّة، ثمَّ يترك قرائه متشوقين لمعرفة ما سيأتي ولكنه في نفس الوقت كان يرضي فضوله.وقد نُشرت الرواية كاملة لأوَّل مرَّة في يوليو عام 1861 م.

وتُعد الرواية واحدة من أحسن أعمال "ديكنز"، وواحدة من أكثر رواياته شعبية، وقد تمّ تجسيدها علي شاشة السينما، وعلي خشبة المسرح حوالي 250 مرَّة.

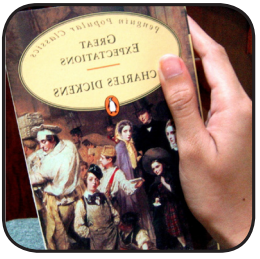

رواية الآمال العظيمة

و"ديكنز" يتتبع في روايته قصَّة "بيب"، الطفل اليتيم، من طفولته المبكرة وحتى بلوغه، ومحاولته لأن يصبح شخصاً من النبلاء "جنتلمان" أثناء مسيرته تلك.والرواية تجري أحداثها من عشية عيد الميلاد عام 1812 م، عندما كان بطل القصَّة في السابعة من عُمْره، .ويمكن اعتبار الرواية قصَّة شبه ذاتية للكاتب، على غرار الكثير من أعماله، حيث يستقي فيها من خبرته في الحياة ما يجعله من أهم كُتَّاب الرواية.

يظلّ طوال الرواية يتحدَّث البطل "بيب" علي لسانه ليروي لنا كُلّ تفاصيل حياته، فهو يبدأ الرواية بزيارة قبر أبويه، حيث يُقابل سجين هارب، يطلب منه أن يحضر له في اليوم التالي الطعام ومبرد حديدي ؛ وبالفعل يحضر"بيب" المطلوب منه.وهذا السجين الهارب ستكون له مع "بيب" مفاجآت مُدهشة.

ثمّ يحصل "بيب" علي دعوة من الآنسة "هافيشام" للعب في بيتها، وهي المرأة التي عُرفت بأطوارها الغريبة.فقد مرَّت بصدمةٍ عاطفيةٍ مريرةٍ جعلتها علي هذه الحالة المزرية.وفي هذا البيت الكئيب يتعرَّف" بيب" علي الفتاة "ستلا" والتي كانت في نفس سنه الصغير، وإن كانت تتميَّز بالغرور والعجرفة، وهذه الفتاة لم تكن ابنة الآنسة "هافيشام" بل طفلة تبنتها، وللفتاة قصَّة مُثيرة ستظل مستترة طوال أحداث الرواية إلي أن تتكشف قرب نهاية الأحداث. كانت أكبر أمنية لـ"بيب"حينها هو أن يعمل صبي حداد في ورشة زوج أخته "جو"، وبالفعل تمّ تحقيق الحلم، ولكنه لم يشعر بالسَّعادة قط من هذه المهنة.

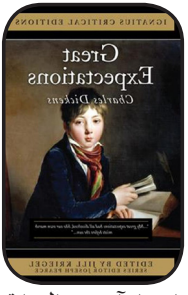

إصدار آخر من الرواية

بعدها جاءته الفرصة علي طبقٍ من فضةٍ فقد تبرع أحد المحسنين له لكي يصبح "جنتلمان" حقيقي، وهكذا يحصل علي مبلغٍ من المال ليسافر إلي لندن ليتعلم هناك، وبالفعل تعلم وأصبح رجل له مكانه، ولكن تأتي الرياح بما لا تشتهي السفن فقد أحب "ستلا"، وبالتالي عاش ينسج أوهاماً غير حقيقية، وكُلَّما تكشفت له حقيقة كُلَّما شعر بخيبة الأمل. وهكذا تظل تنقلنا الرواية من مفاجأةٍ إلي أخري، بعضها يكون في صالح "بيب"، وبعضها الآخر يكون بمثابة مفاجآت غير سارة صادمة بالنسبة له.

نهاية القصَّة هي نهاية مفتوحة علي عدة احتمالات يمكن للقارئ أن يتوقعها، ولكنَّها علي أية حال ليست نهايات حزينة، أو محبطة، أو صادمة. والرواية تحاول أن تؤكِّد علي مبدأ مهم وضروري في الحياة يتبلور في عدم الاتكال في شق المستقبل السعيد علي أية منح قد تأتي من عالم الغيب ثمّ الركون عليها، ففي كثير من الحالات تضيع هذه الثروات بسهولةٍ كما تجئ بسهولةٍ أيضاً، وإنما يأتي المستقبل العظيم بالعمل الشخصي الجاد.

❋ ❋ ❋ ❋

مغامرات طفل خائف
Adventures scared child

عشتُ معظم السَّنَوات الأوَّلي من حياتي في مقاطعة «كنت» Kent، وبالرَغْم من ذلك فإنَّ مستنقعاتها الموحشة ما زالت تُخيفني حتي الآن، فقد كنتُ أتخيَّلُ وجود أشباح تتلاعب في طبقات الضَبَاب الكثيف، كما أتخيَّل سماع أصوات غريبة صادرة من تَدَفُّق المياه في مجري النهر المجاور.

"بيب" في مقابر والديه

وعندما كنتُ في السَّابعة من عُمْري، وفي عشية عيد الميلاد، ذهبت لزيارة قبر أبي وأُمي الذي يقع بساحةٍ واسعةٍ مُلحقةٍ بالكنيسة، وفي مكانٍ يطل علي مستنقعاتٍ مُخيفةٍ مُرعبةٍ.

في الحقيقة لم أري أبي، ولم أُشاهد أُمي مُطلقاً، ولكني أستطيع قراءة أسميهما المحفورين علي شاهد القبر: «فيليب» Philip وزوجته «جورجيانا بيرون» Georgiana prron.

«فيليب» كان اسم أبي، وأسمي أنا أيضاً، ولكن عندما كنت أتعلَّم النطق في طفولتي المبكرة، كنت لا أستطيع نطق هذا الاسم نطقاً صحيحاً، وإنَّما كنت أنطقه هكذا: «بيب» Pep، وهو الاسم الذي ظلّ يُطلق عليَّ طوال حياتي.

وفي أثناء تلك الزيارة لقبر والدي، حاولت أن أتذكَّر أيّ شيء عنهما فلم أستطع، لذلك فقد انهمرت الدموع من عينيّ انهماراً شديداً وبدأت في البكاء..وعلي حين غرة سمعت صوتاً مُخيفاً مُرعباً يصيح بي:

ـ أسكت..توقف عن هذا الضجيج..وإلَّا قطعت رقبتك!

وظهر أمامي رجل عملاق خرج من بين المقابر الموحشة، وأمسكني من ذقني بقبضته الحديدية..كان يرتدي ملابس خشنة رمادية اللَّون، ويُحيط بقدمه طوق حديدي.وكانت تلك الملابس مبتلة، ولذا..فقد كان جسمه المُلَطّخ بالطين يرتعش من شدّة البرد.وأخذ يُحَمْلِق فيَّ بعينين يتطاير منهما الشرر.

فقلت له وأنا أرتجف من شدّة الرُّعْب والفزع:

ـ أتوسَّل إليك يا سيِّدي..لا تقتلني..أرجوك!

فسألني الرَّجل المُخيف :

ـ ما اسمك ؟..وأين تعيش ؟..ومَنْ هم أهلك ؟..أجب بسرعةٍ..

فقلت علي الفور:

ـ اسمي «بيب» ..ووالديّ مدفونان في هذه القبور..وأنا أعيش مع أختي السيِّدة» جو جارجري» Mrs Joe Gargery، وزوجها الحدَّاد الذي يعمل في هذه القرية .

فقال الرَّجل، وهو ينظر إلي القَيْدِ الحديدي المربوط بقدمه:

ـ هه..حدَّاد!

وفي لمح البصر، أمسكني بقُوَّةٍ، وقلبني رأساً علي عَقِب، وأفرغ كُلّ ما في جيوبي، ولم يكن معي سوي بعض المسْامير وكِسْرَة صغيرة من الخُبْز..ثمَّ أجلسني علي شاهدٍ حجريٍ لأحد المقابر..وأخذ يلتهم كِسْرَة الخُبْز ويبتلعها في نهمٍ شديدٍ.وبعد أن انتهي من تناولها، هزني بقُوَّةٍ، وقال:

ـ والآن أيها الوغد الصغير .. هل تعرف المِبْرَد الحديدي ؟

فأومأت إليه برأسي موافقاً، لأني كنت عاجزاً عن الكلام من شدَّة الرُّعْب..

فقال:

ـ إذاً عليك بإحضار مِبْرَد حديدي، وإحضار بعض الطعام.. عليك بإحضارهما إلي هنا في صباح الغد .. أفهمت ؟!

وأخذت أبلع ريقي بصعوبةٍ، وقلت له وأنا ألهث:

ـ نعم يا سيِّدي!!

ـ وإياك أن تخبر أحد بذلك..وإلَّا لقتلناك علي الفور..فأنا أعرف صديقاً لي يهوي قتل الأولاد وتمزيق قلوبهم..وقد تظن أنَّك ستكون آمناً وتنام في سريرك مطمئناً..ولكن صديقي هذا قادر علي التسلُّل إلي غرفة نومك ليقتلك في لحظةٍ.. تذكَّر هذا جيداً.. هيا.. انصرف الآن!

وأومأت برأسي إليه موافقاً علي كُلِّ ما قاله..وقفزت علي الفور وأنا لا أصدق أنَّني نجوت، وأخذت أجري وأقفز بأقصى سرعة في اتجاه البيت، وكان قلبي المرتجف يَدُقُّ عالياً لدرجة أني كنت أسمع دقاته.

ولكن في البيت كانت تنتظرني متاعب أخري، فبينما كنت أتسلَّل علي أطراف قدمي متجهاً إلي المطبخ، شاهدني زوج أختي الحدَّاد «جو» Joe، فهز رأسه الأشقر، وسألني:

ـ أين كنت يا «بيب» ..إنَّ أختك خرجت للبحث عنك ؟

وفي هذه اللَّحظة، انفتح الباب بعنفٍ ودخلت أختي وهي في قمة الغضب والثورة.كانت أختي السيِّدة «جو» Mrs Joe تكبرني بنحو عشرين سنة، وكانت حادة الطبع جدّاً.وبدون أن تنطق كلمة واحدة، انقضت عليَّ وضربتني علي رأسي وقذفت بي نحو زوجها، ولكن «جو» العملاق وقف حائلاً بيني وبينها، وحاولت هي أن تراوغ زوجها العملاق لكي تمسكني، ولكن تسترت واختبأت خلفه، وظللت أراوغها بمساعدته إلي أن تعبت وكفت عن ملاحقتي!

الهارب الضخم يُخيف "بيب" ويتوعده

وبعد أن انتهي هذا الخطر الداهم، ابتسم «جو»، وصحبني إلي مكانٍ دافئ قرب المدفأة. ومن هناك كنت أسمع قرقعة الأواني والأطباق التي كانت تغسلها أختي في المطبخ.ثمَّ سمعت صوت «طلقة نارية» يأتي من بعيدٍ، فقلتُ هامساً:

ـ ما هذا الصوت يا «جو» ؟

فقال، وهو يشرح الأمر لي:

هذه طلقة تحذير تطلقها سفن السجن وهي تعبر النهر، للتحذير من سجينٍ هاربٍ..وهذه هي الطلقة الثانية للدلالة علي أن سجيناً آخر قد هرب، أمَّا الطلقة الأوَّلي فكانت في اللَّيلة الماضية لتحذيرنا أنَّ لصَّاً أو قاتلاً قد استطاع الفرار والهرب.

كنت أرتعد وأنا أسمع ما قاله «جو» .ودقت أختي علي المائدة بنفاد صبر وهي تدعونا إلي تناول العشاء.وأخذت تضع الزَبد علي الخَبْز وناولت كُلّ واحد منا نصيبه..وبالرَغْم من أنَّ «جو» هو الذي يمدَّنا بالخَبْز والزَبد، إلَّا أن طبيعته الطيبة كانت تجعله يتقبَّل مثل هذه المُعاملة من أختي التي كانت تُعامله مثلي مُعاملة الأطفال!!

وبينما انهمكت أختي في الحديث عن استعداداتها لحفل عيد الميلاد في اليوم التالي، وضعتُ نصيبي من الخَبْز بجيبي، وقلتُ في نفسي: « إذا لم أجد شيئاً آخر في المطبخ، فلا أقلّ من أن أحتفظ بهذا الخَبْز للسجين الهارب الذي ينتظرني» .

وكانت أختي لا تسمح لي بأن أضيء شمعة وأنا في طريقي للصعود إلي غرفتي العلوية، لذلك فقد ازددت خوفاً وهلعاً في تلك اللَّيلة وأنا أصعد درجات السُّلَّم..وخُيَّل لي أني أنا أيضاً سأكون سبباً لأن تطلق سفينة السجن طلقاتها بعدما ارتكب سرقة بعض الطعام من المطبخ أو من غرفة التخزين!

"جو" يستفسر من "بيب" عن سبب غيابه

وعندما رقدت علي سريري، أخذت أتخيَّل أنَّ سجيناً صغيراً يقبع بجوار السرير مُتَرَبِصّاً بي ومستعداً لتمزيق قلبي! ولهذا فقد احتفظت في يدي بقطعة الخَبْز التي خبأتها لكي أُريها له فلا يقتلني! وظللت علي تلك الحال طوال اللَّيل..ولكن السجين لم يظهر رغم توقعي لظهوره في أية لحظة..ولم أستطع النَّوْم أو النُعاس.

وفي الفجر عند ظهور أوَّل خيط من ضوء النهار، تسلَّلت هابطاً درجات السُّلَّم، وكان وقع خطواتي علي الأرض يكاد يصيح ضدي: «امسك حرامي»!!

وبمناسبة العيد، فقد وجدتُ بالمطبخ وبغرفة الخزين طعاماً أكثر ممَّا كنتُ أتوقع، ولذلك فقد أخذت مزيداً من الخَبْز، وقطعة كبيرة من الجُبْن، وفطيرة كبيرة محشوة باللحْم، وبعض من شراب «البراندي» الذي أفرغته في زجاجةٍ فارغةٍ، وأضفت قدراً من الماء إلي الزجاجة الأصلية حتي لا يحسّ أحد أنَّني سرقت منها أيّ شئ .. وقد جرؤت علي أخذ فطيرة اللحْم لأني رأيتها موضوعة علي الرَّفِّ الخلفي، فاعتقدت أن أختي لا تنوي تقديمها إلينا في وقتٍ قريبٍ..

وكان بالمطبخ باب يؤدي إلي ورشة الحِدَّادة الخاصَّة بزوج أختي، فتسلَّلت إليها واخترت مِبْرَداً ثقيلاً من الأدوات التي يستعملها «جو»

فطيرة عيد الميلاد
Christmas holiday pie

كانت لم تزل هناك مسافة طويلة حتي أصل إلي الحائط المُهَدَّم الذي أتوقّع أنَّ السَجِين الذي ينتظرني يختبئ خلفه.ولكني رأيته فجأةً أمامي! رأيتهُ من ظهره وهو جالس علي حجرٍ، ويبدو نائماً..واقتربت منه علي حذرٍ، ثمَّ رَبَتُّ علي كتفه لأَنْبَهَهُ .

فهبّ واقفاً علي الفور واستدار إليَّ، ولكنه لم يكن نفس الرَّجل! كان رجلاً آخر! كان يرتدي أيضاً ملابس خشنة رمادية اللَّون، وفي قدمه قيد حديدي..ولكن ملامحه كانت مختلفة. التفت إلي الرَّجل، وهَوَي بيده ليضربني علي رأسي، ولكني تحاشيت الضَرْبَة بسهولةٍ، لأنَّها كانت ضَرْبَة ضعيفة تدل علي أنَّ الرَّجل مريض أو يُعاني من شِدَّةِ البَرَدِ.

الهارب الثاني الذي قابله "بيب"

وفجأةً أخذ يفرّ من أمامي، واختفي في الضَبَاب الكثيف، وكنتُ علي يقينٍ بأنَّ هذا الرَّجل هو صديق الرَّجل الآخر، وهو الذي يُمزق قلوب الأطفال!

وعندما وصلت إلي الحائط المُهَدَّم..وجدت نفس الرِّجل الذي شاهدته بالأمس، كان «يتنطط» علي الأرض بنشاطٍ حتي يدفئ جسمه.

وبدون أن أنطق بكلمةٍ واحدةٍ، أخرجت المِبْرَد والطعام من داخل معطفي، فاتسعت عيناه مُعبِّراً عن سروره، ومدّ يده المرتجفة وبدأ يلتهم الطعام بنهمٍ شديدٍ.وعندما أخرجت الزجاجة وقدَّمتها إليه، سأل مستفسراً:

ـ ماذا أحضرت لي في هذه الزجاجة يا ولد ؟

فأجبته علي الفور:

ـ هذا بعض «البراندي» يا سيِّدي..لعله يُساعدك علي التغلُّب علي برودة الجوّ هنا في تلك المستنقعات.

فخطف الزجاجة من يدي علي الفور، وشرب أكبر كمية ممكنة، ثمَّ مسح فمه بظهر يده، وقال:

ـ فكرةٌ جيدةٌ تدل علي ذكائك..ها..هل أخبرت أحداً ؟

ـ لا، لا يا سيِّدي..لم أُخبر أحداً..لقد سرقت لك هذا الطعام!

فأومأ برأسه راضياً ممتناً..وأخذ يقضم قطعاً كبيرةً من فطيرة اللحْم حتي كاد أن يقضي علي الفطيرة بأكملها.فقلت له:

ـ إني مسرور يا سيِّدي لأنَّ الفطيرة أعجبتك، ولكن..ألن تحتفظ لصديقك ببعضٍ منها ؟

فقال بخبثٍ ودهاءٍ:

ـ تقصد صديقي الذي يُمزق قلوب الأطفال ؟

ثمَّ أخذ يضحك، وهو يقول:

ـ لا! إنَّه ليس في حاجةٍ إلي الطعام..

فقلت له علي الفور:

ـ لا أعتقد ذلك يا سيِّدي..فهو يبدو جائعاً وفي حاجةٍ ماسةٍ إلي الطعام!

عندئذ هبّ الرَّجل واقفاً، وأمسكني بكلتا يديه من ياقة معطفي، وسألني بلهفةٍ:

ـ تقول إنَّه يبدو! هل رأيته..أين..ومتى ؟

فأجبت بسرعةٍ، وأنا أُشير إلي الاتجاه الذي اختفي فيه الرَّجل الثاني:

ـ إنَّه هناك يا سيِّدي..يرتدي ملابس مثل ملابسك تماماً، وفي قدمه قيد حديدي..لقد أطلقت سفينة السجن طلقة بالأمس لتُحذِّر النَّاس منه..ألم تسمع هذه الطلقة ؟!

ـ رُبَّمَا سمعتها! ورُبَّمَا لم أسمعها!..إنَّ البقاء وحيداً في مثل هذه المستنقعات، شيءٌ يُدير الرأس..ما شكل ملامحه ؟ صفه لي!

واستعدت علي الفور منظر السجين الثاني بملامح وجهه المُعبِّرة عن الخوف والفزع، وقلت :

ـ رأيتُ كدمة علي خده..!

وعندئذ شعر بشيءٍ من الارتياح، وقال لي:

ـ إنَّه هو بالفعل..سوف اصطاده كما تُصاد الكلاب! ولكن أين المِبْرَد..أعطني إياه يا ولد..

"بيب" يفي بوعده تجاه الهارب الأوَّل

وكان المِبْرَد قد سقط علي الأرض حين كان الرَّجل يتناول لفة الطعام، فالتقطهُ وقدَّمتهُ إليه. وفي لمح البصر، انحني الرَّجل وركع علي العشب المبتل، وبدأ يَبْرد القيد الحديدي الملتف حول قدمه..يَبْرد بهمةٍ وجنونٍ!

ورأيت أن أنصرف، فتراجعت بظهري إلي الخلف عدة خطوات وأنا أنظر إليه، ولكنه لم يهتم بي إطلاقاً لشِدَّةِ انهماكه في برادة القيد الحديدي.

وعندئذ استدرت وبدأت أجري في اتجاه البيت، وبالرَغْم من أني ابتعدت كثيراً عن مكان الرَّجل، إلَّا أني ما زلت أسمعه..يَبْرد..ويَبْرد..ويَبْرد!

وفي البيت كانت أختي منهمكة في أعمالها المنزلية، تروح وتغدو كالدوَّامة هنا وهناك.. تقوم بتعليق الستائر النظيفة البيضاء علي النوافذ والشرفات، وترفع الأغطية عن الأثاث بغرفة الجلوس..وكانت هذه الغرفة تحديداً لا تُستعمل إلَّا في المناسبات الخاصَّة، وبالطبع فإنَّ الاحتفال بعيد الميلاد كان أهم هذه المناسبات.

وتناولت أنا و «جو» طعام الإفطار ونحن واقفين، لأنَّ أختي لم تجد وقتاً كافياً لتقديم الإفطار علي المائدة..كانت منهمكة بالفعل في إعداد الطعام للضيوف المتوقع حضورهم في أيّة لحظة.

وفجأةً، أحسست وكأن قلبي قد توقف عن النبض، وقلت في سرّي: «هل كانت الفطيرة المحشوة باللحم مُعدة إذاً للاحتفال بالعيد ؟» .

لقد شعرت بالفزع من تلك الفكرة المُخيفة ونتائجها..وظلّ هذا الإحساس يلازمني حتي حين استدعتني أختي وأخذت تغسل لي وجهي ورأسي، ثمَّ ألبستني أنظف وأجمل ما لديّ من الثياب.

وكذلك ارتدي «جو» أنظف ملابسه وأجملها.وجلسنا معاً في حجرة الجلوس، في انتظار الضيوف..

وعند أوَّل طرقة علي الباب الخارجي للبيت، قمتً وفتحت الباب لأوَّل هؤلاء الضيوف وهو السيِّد «ووبسل» Mr. Wopsle كاتب الكنيسة.ثمَّ حضر بعده صانع العجلات السيِّد «هابل» Mr. Hubble وزوجته.

وأخيراً وصل عمي السيِّد «بامبلشوك» Mr. Pumblechook ..الحقيقة كان هذا الرَّجل هو عمّ «جو»، ولكن أختي اعتبرته عمّاً لها أيضاً، لأنَّه كان تاجر الحبوب بالمدينة، ويتمتَّع ببعض الثراء.واستقبلته أختي بحفاوةٍ بالغةٍ، وقد قال بزهوٍ وافتخارٍ:

ـ سيِّدة «جو» ..لقد أحضرت لكِ هدية طيبة..نبيذاً فاخراً من أفضل الأنواع!

..تمتَّع الجميع بتناول الطعام فيما عداي..فقد كنت ممنوعاً من الكلام بأمر من أختي، رَغْم أنَّ معظم الحديث كان يدور عني، وعن المتاعب الكثيرة التي أُسبِّبها لشقيقتي الشقية المسكينة! ولم تسمح أختي لزوجها «جو» بأن يُدافع عني، بل طلبت منه أن يوافق علي كُلِّ

أقوالها، ويبدو أن «جو» كان يود أن يعتذر لي بصمتٍ، فوضع لي كمية كبيرة من الصلصة علي قطعة اللحم الخاصَّة بي.

ثمَّ بدأ يحدث ما كنت أخشاه وأتوقعه، عندما قالت أختي بفرحٍ وغبطةٍ:

ـ يا عمي «بامبلشوك» ..لقد أعدّدت لك مفاجأة تُحبّها.. فطيرةٌ محشوةٌ باللحم!

"جو" يرتدي أجمل ثيابه انتظاراً للضيوف

وفي الحال صفق الجميع لهذا النبأ السعيد..وبدأ الضيوف يفتحون شهيتهم استعداداً لتناول تلك الفطيرة.. وسمعت كُلّ حركات أختي وهي تبحث عن الفطيرة في كُلِّ مكانٍ، وتخيَّلت ما سوف يحدث.. حين عادت خالية اليدين، وهي تقول بدهشةٍ ممتزجةٍ بالحسرة:

ـ يا إلهي العظيم..لا أعرف ماذا حدث ؟..لقد اختفت الفطيرة!!

ولم استطع الصمود أكثر من ذلك، فقد تَبَدَّدت كُلّ قدراتي علي المقاومة، فقمت واقفاً، واندفعت إلي الباب لأهرب..وما كدت أفتح الباب حتي صُدمت بمنظرٍ لم أتوقعه قط..رأيت مجموعة من جنود الشرطة، وكان قائدهم يمسك في يده بقيدين حديديين، رفعهما أمام وجهي، وهو يقول:

ـ يا فتي..!

❊ ❊ ❊ ❊

القبض علي السجينين الهاربين
The arrest of the two prisoners fugitives

تَلّعْثَمت، وتَعَثّرت خطواتي وأنا أتراجع إلي الخلف: « إذاً! لقد عرفوا أني لَصّ..وجاءوا للقبض عليَّ!» .

وأمسكني «جو» من ذراعي قبل أن أَهَوَي إلي الأرض.

وعندئذ فقط، ابتسم لي قائد الشرطة، وقال برقةٍ وهو ينظر إلي الجميع:

ـ معذرةً سيِّداتي وسادتي..أنا شرطي في خدمة الملك..وقد كُلفت أنا ورجالي بالقبض علي السجناء الهاربين..ونحن في حاجةٍ عاجلةٍ إلي خدمةٍ من الحَدَّاد!

فقالت أختي قبل أن ينطق «جو» بكلمةٍ:

ـ هذا هو الحَدَّاد..ماذا تريدون منه في يوم الاحتفال بعيد الميلاد ؟

ـ نُريد إصلاح هذه القيود الحديدية لأنَّ قفلها لا يعمل، ونحن في حاجةٍ شديدةٍ إليها.

أشارت أختي لزوجها لكي يُبدي رأيه.فأمسك «جو» بتلك القيود الحديدية وفحصها، ثمَّ قال:

ـ لا بدّ من إشعال فرن الحِدَّادة..وإصلاحها قد يستغرق ساعة كاملة!

فوافق قائد الشرطة، وقال:

ـ لا بأس..فسوف نستطيع القبض علي الهاربين قبل حلول الظلام.. وعلينا إذاً إشعال الفرن.

ودخل جميع رجال الشرطة إلي البيت، ووضعوا أسلحتهم في ركنٍ من الحجرة.وارتدي «جو» مريلته الجلدية استعداداً للعمل، وذهب إلي الورشة وتبعه جميع الجنود ما عدا قائدهم لمساعدته في إنهاء العمل علي وجه السرعة.

السجين الأوّل في البركة يستعد لمصارعة غريمه

وقام العمّ «بامبلشوك» بدعوة قائد الشرطة إلي الجلوس معنا حول المائدة، وصبّ له كأساً من النبيذ الذي أحضره معه كهديةٍ..وفي لحظاتٍ عاد الاحتفال إلي بهجته من جديد، بينما كانت تُسمع من بعيد دقات مطرقة «جو» وهو يَدقّ بها علي السندان.

وبعد أن انتهي «جو» من إصلاح القيود الحديدية، سمح لنا قائد الشرطة بأن نصطحبهُ لمشاهدة عملية القبض علي السجناء الهاربين. ولم يوافق علي ذلك سوي السيِّد «ووبسل»، و «جو»، كما سمحت لي أختي بأن أخرج في صحبتهما، ولكن بعد أن حذرت «جو» بصوتٍ مسموعٍ :

ـ إذا عدت ورأس الولد مقطوعة، فلا تنتظر مني أن أُعيدها إلي مكانها الصحيح!

وذهبنا جميعاً إلي ساحة المقابر خلف الكنيسة..نفس المكان الذي قابلت فيه السجين الأوَّل . وبينما كان الجنود يبحثون ويفتشون المكان، بدأت أشعر بالخوف، فرَبَّمَا ظن السجين الهارب أني خدعته، وأبلغت عنه رجال الشرطة..وقد حضرت معهم لأرشدهم إلي هذا المكان..ولكن عندما لم يعثر الجنود علي أحدٍ، تحرَّكنا من جديدٍ في اتجاهٍ آخر..

وبدأ يسقط علينا مطر شبه مُتجمِّد، ولكن فجأةً سمعنا صرخةً عاليةً تأتي من بعيدٍ..فأشار قائد الشرطة لرِّجاله بالتقدُّم نحو المكان الذي صدرت منه هذه الصَرْخَة، وأخذ الجميع يجرون بخطواتٍ سريعةٍ واسعةٍ فلم أستطع اللحاق بهم، فحملني «جو» علي كتفه، وأخذ يجري مع الرِّجال إلي أن اقتربنا من حفرةٍ واسعةٍ يتناثر منها الماء والطين..وسمعنا قائد الشرطة يصرخ بقوَّةٍ:

ـ سلما نفسيكما..أنت وهو!

ووقف الجنود حول الحفرة وهم يصوبون بنادقهم نحو السجينين اللَّذين كانا منهمكين في عِراكٍ شديدٍ..ولم ينفذا الأمر الصادر إليهما بالتسليم..لذلك فقد نزل الجنود إلي الحفرة، وقبضوا علي السجينين وهما في حالةٍ مزدرية، ويلهثان من شِدَّةِ التَّعَبِ.

وصاح السجين الأوَّل غاضباً، وهم يضعون يديه في القيود الحديدية:

ـ تذكَّروا جيداً..أنا الذي قبضت عليه..لقد قبضت عليه من أجلكم!

أمَّا السجين الثاني فقد كان يُعاني من شدة ما ناله من الضَرْبِ، ويكاد يَهوَي علي الأرض غير قادر علي الوقوف دون مساعدة، وتلعثم وهو يقول مشيراً إلي السجين الأوَّل :

ـ لقد حاول أن يقتلني!

فقال السجين الأوَّل علي الفور:

جال الشرطة يقبضون علي السجين الأوَّل

ـ أنا لم أحاول قتله، وإلَّا لنجحت في ذلك بسهولةٍ، لقد حرصت علي القبض عليه حيّاً لأسلمه لكم..أنظر يا سيِّدي الشرطي..ليس في قدميَّ قيد حديدي، وكان يمكنني أن أذهب إلي حال سبيلي، ولكن عندما عرفت أنَّه هرب، طاردته حتي لحقت به، ومنعته من الهرب!

وعندئذ صاح به قائد الشرطة آمراً:

ـ كفي!!

وأُشعلت بعض المشاعل، كما أُطلقت البنادق كإشارةٍ إلي سفينة السجن لكي ترسل قارباً إلي هذا المكان.

وعلي ضوء المشاعل لمحني السجين الأوَّل، فنظرت إليه مواسياً، وحرّكت يدي حركة خفيفة وهززت رأسي له كإشارةٍ مني بأني لست مسؤولاً عن إحضار هؤلاء الجنود للقبض عليه.. وحملق في عينيّ لحظة، كما لو كان يُريد أن يتبيَّن مدي صدقي!

ومشينا جميعاً تجاه شاطئ النهر،حيث وصل القارب لأخذ الجنود والسجينين الهاربين إلي السفينة، وقبل أن يضع السجين الأوَّل قدمه في هذا القارب، التفت إلي قائد الشرطة، وقال بصوتٍ عالٍ سمعه الجميع:

ـ أُريد أن أقول شيئاً..لقد سرقت بعض الطعام، وقليل من «البراندي» من بيت حدَّاد القرية.. لقد سرقت أيضاً فطيرة محشوة باللحْم..

فقال «جو» علي الفور:

ـ آه! هذا هو السبب في أن زوجتي لم تعثر علي الفطيرة..ولكنَّنا مع ذلك لا نبخل بطعامنا علي شخصٍ جائعٍ..أليس كذلك يا «بيب» ؟!

فأومأت برأسي موافقاً، لأني كنت عاجزاً عن الكلام تماماً..

..وابتعد القارب بحمولته متوجهاً إلي سفينة السجن..أمَّا نحن فقد توجهنا إلي البيت.

في بيت المرأة الحزينة
The sad woman house

كان زوج أختي «جو» أمياً لا يعرف القراءة أو الكتابة، بينما حصلت أنا علي قدرٍ يسيرٍ من التعليم.

ولكن نظراً لأنَّهم كانوا يعدونني لكي أصبح صبياً مُساعداً له في أعمال الحِدَّادة، فقد اكتفوا بهذا القدر من تعليمي .

كنت لا أرغب في شيءٍ أكثر من أن أصبح حدَّاداً أُساعد «جو» في ورشته، فلقد كنت أُحبَّهُ حُبّاً جمّاً، وكان هو يبادلني هذا الحُبّ ويعطف عليَّ كثيراً.فقد كان يُدافع عني باستمرارٍ وبقدر ما يستطيع ضد الضَرْبَات القاسية العنيفة التي كانت توجهها إليَّ أختي، وكان أيضاً يحميني من طباعها العصبيَّة الحادة.وكان تدخله هذا لا يعفيه من تلقي بعض الضَرْبَات نيابة عني، كما كانت أختي توبخنا نحن الاثنين معاً!

وبعد انقضاء أيام قليلة بعد حفل عيد الميلاد حدث تغيُّر كبير في حياتي، فقد جاء العمّ «بامبلشوك» في أحد الأيام، وقال إنَّ الآنسة «هافيشام» Miss Havisham تدعوني لألعب في بيتها..وهي امرأة عجوز واسعة الثراء، تعيش حياة كئيبة حزينة في بيتٍ كبيرٍ مهملٍ.

ولم أكن قد رأيت هذه السيِّدة من قبل، ولكني سمعت عنها كثيراً.. وكنت أعرف أنَّها تعيش وحيدة منعزلة عن الناس، وأنَّ بيتها دائماً مُغلق بالمتاريس خوفاً من سطو اللصّوص وقُطاع الطرق.

"بيب" أمام بيت الآنسة "هافيشام" لأوّل مرّة

وها هي الآن تدعوني لكي ألعب وأمرح في بيتها!!

قال «جو» مندهشاً بعد كلام العمّ «بامبلشوك» :

ـ ولكن كيف توصلت هذه السيِّدة إلي معرفة «بيب» ؟

فصاحت فيه أختي مستنكرة:

ـ يا ساذج..مَنْ قال لك أنَّها تعرفه ؟!

ثمَّ ابتسمت إلي العمِّ «بامبلشوك»، وقالت:

ـ إنَّ عمَّك يستأجر بعض أملاكها..وعندما كان يدفع لها الإيجار في أحد الأيام، سألته إذا كان يعرف صبياً لتدعوه لكي يحضر ويلعب أمامها، ولأنَّ عمَّك طيب القلب، فقد اقترح عليها دعوة هذا الولد لحُسن حظه..

ثمَّ استطردت تقول:

ـ والآن..ابتعد عن طريقي كي أتولي تنظيفه وإعداده لتلبية دعوة هذه السيِّدة!

وعلي الفور أمسكتني أختي وأخذت تغسل جسمي بالماء والصابون، ثمَّ جففتني وألبستني ملابس داخلية جديدة، وأفضل ما لديّ

من ملابس الخروج..وأثناء ذلك لم تكف أختي ولا العمّ «بامبلشوك» عن تبادُّل الأحلام بصوتٍ عالٍ..فقد قالت أختي متمنية:

الآنسة "هافيشام" بثياب زفافها

ـ أوه! ليتني كنت ولداً صغيراً لتدعوني هذه السيِّدة الثرية..ربما ستعود هذه الدعوة بالنفع علي «بيب» ..بل ستعود بالنفع علينا جميعاً..

وكان العمّ «بامبلشوك» يهز رأسه موافقاً بوقارٍ، وهو يقول:

ـ لا شكّ في ذلك..لا شكّ..لقد بدأ الحظ يبتسم له منذ الآن!

وما هي إلّا لحظات حتي وضعوني في عربة العمّ «بامبلشوك» التي ستأخذني إلي حيث ألعب..ولم أكن شجاعاً لأسأل: «لماذا ألعب ؟ وما هو نوع هذا اللَّعب؟!».

ثمَّ وقفت العربة أمام بيت كئيب موحش مبني بالطوب، وله سور يُحيط به من كُلِّ جانب، وبوابة مُغلقة بالمتاريس، ونوافذ كثيرة تُحيط بها قضبان حديدية.

ودقّ العمّ «بامبلشوك» جرس الباب، فانفتحت إحدى النوافذ، وجاء منها صوت صريح:

ـ ما اسمك ؟

ـ اسمي «بامبلشوك» ..وجئت لأسلم الصبي «بيب» .

الآنسة "هافيشام" أغرب امرأة قابلها "بيب"

فأُغلقت النافذة علي الفور.. وبعد لحظات قليلة ظهرت في الفناء الخارجي صبية صغيرة جميلة، واتجهت إلي البوابة، وهي تمسك ببعض المفاتيح..

كانت الفتاة في مثل سني تقريباً، ولكنَّها كانت تبدو أكبر من عُمْرها الحقيقي، بسبب تَكبُّرها الشديد والطريقة المتغطرسة التي تُحرِّك بها رأسها وكتفيها..ودون أن تنظر إليَّ، قالت لي:

ـ ادخل يا «بيب» .

وشرعت علي الفور في غلق البوابة قبل أن يدخل العمّ «بامبلشوك» في صحبتي إلي الداخل. ونظرت إليه الفتاة شزراً وهي تُغلق البوابة في وجهه، وقالت له بكثيرٍ من التعالي والتكبُّر:

ـ هل تُريد مقابلة الآنسة «هافيشام» ؟

فقال العمّ، وهو يشعر بكثيرٍ من الحرج:

ـ إذا كانت الآنسة «هافيشام» تُريد مقابلتي!

فقالت الفتاة عندئذ:

ـ آه..هي لا تُريد مقابلتك!

وبعد أن تركنا العمّ «بامبلشوك»، وهو يُعاني من جرح كرامته، عبرنا الفناء الداخلي ودخلنا إلي البيت من بابٍ جانبيٍ لأنَّ الباب الرئيس كان مُغلقاً بالسلاسل.

كان الظلام حالكاً داخل البيت، ولكن الفتاة أشعلت شمعة كانت موضوعة علي منضدةٍ قُرب الباب، ثمَّ سحبتني عبر ممرات كثيرة وكأنَّها متاهات! وصعدت بي سُلَّماً..وكانت تقول لي بكثيرٍ من الازدراء والاحتقار:

ـ هيا..لا تتلكأ هكذا يا ولد!

وأخيراً وقفنا في مواجهة باب مُغلق، فقالت لي الفتاة:

ـ هيا..ادخل!

فقلت لها بشيءٍ من الخجل والأدب معاً:

ـ بعدكِ يا آنستي!

فقالت بحزمٍ :

ـ لا تكن سخيفاً هكذا يا ولد..فأنا لا أدخل الآن!

وأخذت الشمعة وانصرفت عائدة، وتركتني في هذا الموقف المُرْبك والمُحَيّر، وسط الظلام الدامس.وشعرت بكثيرٍ من الرَّهبة وأنا أطرق الباب..بعدها سمعت صوتاً مبحوحاً يدعوني للدخول.. فدخلت..

«ستلا» .. الفتاة المتغطرسة

وجدت نفسي في حجرةٍ واسعةٍ مُضاءةٍ بالشموع، تبدو كما لو كانت حجرة الملابس لإحدى السيِّدات.فقد كانت هناك مرآة كبيرة ذات إطار ذهبي موضوعة فوق منضدة مُغطاة بمفرشٍ.. وكانت هناك ملابس نسائية كثيرة متناثرة هنا وهناك، وأخري موضوعة في بعض صناديق الملابس.

وفي وسط هذا كُلّه..رأيتُ أغرب سيِّدة شاهدتها في حياتي! كانت ترتدي ملابس العُرْس البيضاء..ثوباً من الحرير الأبيض، و «لدانتيلا» البيضاء..وعلي رأسها طرحة طويلة بيضاء أيضاً..وفي قدمها «فردة» واحدةٍ من حذاءٍ أبيض، أمَّا «الفردة» الثانية فكانت موضوعة علي منضدة قريبة..وكانت تلبس في يدها قفازات بيضاء، وتمسك بمنديلٍ أبيض من القماش المثقوب المُخرَّم..وعلي التسريحة كتاب للصَّلوات له غلاف أبيض..

ورَغْم أني قد وصفت جميع هذه الأشياء بالبياض، إلَّا أن لونها في حقيقة الأمر يميل إلي الصُفْرَة بفعل الزمن.كما أنَّ الزمن قد ترك بصماته الواضحة علي السيِّدة العجوز التي كانت ترتدي هذه الثياب.. فمن الواضح أنَّ ثوب الزفاف الذي كانت ترتديه، كان مُعدّاً من قبل لعروسٍ شابةٍ، أمَّا الآن فهو يبدو متهدلاً فوق جسم نحيف رفيع لا يعدو أن يكون جلداً علي عظمٍ!! هذه إذاً الآنسة «هافيشام».

"ستلا" فتاة "هافيشام"المدللة

قالت لي السيِّدة :

ـ مَنْ أنت ؟

ـ أنا «بيب» يا سيِّدتي.. أحضرني العمّ «بامبلشوك» لكي ألعب!

فأمرتني قائلةً:

ـ اقترب مني..هل تخاف من سيِّدةٍ لم تري الشمس منذ مولدك!!

فهززت رأسي وأنا أقول:

ـ لا يا سيِّدتي!

رَغْم أنَّ الحقيقة كانت غير ذلك!!

وعندئذ وضعت يدها علي الجانب الأيسر من صدرها، وسألتني :

ـ هل تعرف ماذا يوجد هنا داخل صدري ؟

فقلت علي الفور:

ـ قلبكِ يا سيدتي..

الآنسة «هافيشام»ذات القلب الكسير

فابتسمت ابتسامة غريبة وقالت في شيءٍ لا يخلو من الإحساس بالفخر :

ـ قلبٌ كسيرٌ!

ثم أشارت إليَّ كي أنظر إلي السَّاعة الموضوعة فوق «التسريحة»، وإلي ساعة أخري مُعلَّقة علي الحائط..وكانت عقارب كُلّ من هاتين السَّاعتين متوقفة عند السَّاعة التاسعة إلَّا عشرين دقيقة.

وقالت لي وهي تومئ برأسها إيماءة ذات معني :

ـ أنا متعبة .. وأُريد شيئاً يسليني..وعندي ميل شديد لأري شخصاً ما وهو يلعب..

هيا ألعب..

ووقفت صامتاً دون أن أفعل شيئاً.. لا أدري ماذا أفعل ؟ ولا كيف ألعب؟

واستدارت هي لكي تري صورتها المنعكسة علي صفحة المرآة..

وبعد فترة قصيرة التفتت إليَّ، وصاحت بعد أن نفد صبرها :

"هافيشام" تطلب من بيب اللَّعب مع "ستلا"

ـ نادي علي «ستلا» Estella .. إنَّك علي الأقلّ تستطيع أن تفعل ذلك إذا كنت لا تستطيع أن تلعب.. قلت لك نادي علي «ستلا» ..

خرجت من الحجرة إلي الممر المظلم، وناديت علي «ستلا» .. و في الحال ظهر نور الشمعة التي تحملها قادمةً نحوي.

وما إن دخلت الفتاة إلي الحجرة حتي قربتها الآنسة «هافيشام» إليها، ثمَّ أخرجت من أحد أدراج «التسريحة» قطعة مجوهرات علَّقتها بشعر «ستلا» الكستنائي..وقالت لها وهي تضحك ضحكتها الغريبة:

ـ في يوم ستصبح هذه الجوهرة ملكاً لكِ يا عزيزتي.. ستكسبين بها إعجاب الرِّجال الذين ستُحطمين قلوبهم..والآن، ألعبي الورق مع هذا الفتي.. وسأتفرج عليكما..

فقالت «ستلا» ساخطة متأففة:

ـ ألعب مع هذا الفتي ؟ إنَّه مُجرَّد عامل صغير من أبناء العوام!

فهمست لها الآنسة «هافيشام»:

ـ حتي ولو كان ذلك..يمكنكِ أن تُحطمي قلبه.. ألَّا تستطيعين ذلك؟

وأطاعتها «ستلا» ..وجلسنا علي الأرض لنلعب» الورق» .. ولكنَّني لم أستطع أن أُركز ذهني في اللَّعب بسبب الملاحظات الكثيرة التي كانت تبديها «ستلا» للآنسة «هافيشام»..كانت تقول باشمئزازٍ واضحٍ:

ـ إنَّ يديه خشنتين.. وحذاؤه غليظ..إنَّه لا يعرف الاسم الصحيح لورقة الولد في «الكوتشينة»!

لقد تضايقت كثيراً من سوء مُعاملتي، ومن كثرة الملاحظات التي أبدتها «ستلا» علي تصرُّفاتي، وشِدّة استهزائها بي!

وبطبيعة الحال فقد كسبت «ستلا» الجولة.

وكانت الآنسة «هافيشام» تجلس هامدة كالجثة، وهي تراقب اللَّعب..وأخيراً انحنت نحوي وقالت لي:

ـ إنَّ «ستلا» قالت عنك أشياء كثيرة غير طيبة.. وأنت لم تقلّ عنها أي شيء.. ما رأيك فيها ؟ أخبرني!

وإزاء هذا الإصرار من الآنسة «هافيشام» اضطررت أن أهمس في أذنها قائلاً:

"بيب" يخرج مكسور الخاطر من بيت الآنسة "هافيشام"

ستلا فتاة جميلة فخورة بنفسها .. ولكنها كثيرة الشتائم والسباب .. هل يمكنني أن أنصرف الآن ؟

ولكن الآنسة «هافيشام» لم تسمح بانصرافي قبل أن أكمل جولة ثانية من اللَّعب مع «ستلا» . ثمَّ أمرتني بالانصراف علي أن أعود إليها بعد ستة أيام.كما أمرت «ستلا» بأن تُقدِّم لي شيئاً من الطعام..فقدَّمت إليَّ بعض الخبز وقطعة من اللحْم..بطريقةٍ جعلتني أحس بأنَّها تُقدِّم الطعام إلي أحد الكلاب الضالة المتشرِّدة!!

ومن شِدَّة ما عانيته من آلام الذل والهوان..طفرت الدموع من عينيَّ، وسالت علي خديَّ.. وعندئذ لمحت ابتسامة الاستمتاع ترتسم علي وجه «ستلا»، هي تهز رأسها بازدراءٍ واضحٍ!

وعندما عدت إلي بيتي..عاملتني أختي مُعاملة طيبة..باعتباري قد وصلت إلي مكانٍ ما في هذا العالم، وتقدَّمت ولو خطوة واحدة إلي الأمام..ولكني في حقيقة الأمر كنت بائساً حزيناً!

لم أكن أعرف من قبل أني من «العوام» إلَّا بعد أن أشارت «ستلا» إلي ذلك..ولم أكن أدري كم كان حذائي غليظاً مقيتاً..وكم كانت يدايّ خشنتين موحشتين..وكم كان جهلي لأني لا أعرف الاسم الصحيح لورقة الولد في «الكوتشينة»!!

شعرت بالخجل والعار من كُلِّ ذلك..وكان اللقاء الذي تمّ مع «ستيلا» الجميلة في ذلك اليوم سبباً في تغيير مجري حياتي كُلّها!!

أولي القبلات، والجنيهات الذهبية
Preliminary kisses and golden pounds

بعد ستة أيام عدت طائعاً لمقابلة الآنسة «هافيشام»، ومرَّة أخري قادتني الفتاة المتغطرسة «ستلا» عبر المَمَرّ المظلم.

وكانت الآنسة «هافيشام» جالسة كالمعتاد أمام تسريحتها، فاستقبلتني هذه المرَّة، قائلةً:

ـ إنَّك لا تجيد اللَّعب يا فتي..هل تُحبّ أن تشتغل إذاً ؟

فأومأت برأسي موافقاً، فأشارت إليَّ بأن أنتظرها في غرفة الطعام عبر الصالة.

وكانت غرفة الطعام مماثلة تماماً لحجرة الملابس..نفس الستائر التي تحجب ضوء النهار، ونفس الرائحة الخانقة للهواء المكتوم المسموم.. وكانت عقارب السَّاعة الموجودة بتلك الغرفة متوقفة أيضاً عند السَّاعة التاسعة إلَّا عشرين دقيقة.

"هافيشام" تصطحب "بيب" في جولة داخل المنزل الكئيب

وكانت قطعة الأثاث الرئيسة الوحيدة الموجودة بتلك الغرفة.. عبارة عن مائدة كبيرة مستطيلة الشكل مُغطاة بمفرشٍ قديم يعلوه الغُبَار والتراب..وتبدو كما لو كانت مُعدَّة منذ زمن مضي لأحد الاحتفالات الفخمة..وفي منتصف المائدة كان يوجد حامل فضي عليه صينية فضية كبيرة فقدت بريقها، وفوق الصينية كانت توجد كومة صفراء اللَّون من شيءٍ لم أستطع أن أتبينه بوضوحٍ بسبب الأكوام المتراكمة من خيوط نسيج العنكبوت التي تُغطيه، وتُغطي الصينية والحامل وكُلّ شيء آخر علي المائدة!

كنت مأخوذاً بمشاهدة العديد من الفئران وهي تجري هنا وهناك وفي كافة أنحاء الغرفة، لدرجة أني لم أنتبه إلي وقع خطوات الآنسة «هافيشام»وهي تعرج في طريقها إلي الغرفة، محنية الجسم، مستندة علي عصاه تُساعدها في المشي.

"بيب" يبدأ جولة جديدة من اللَعب مع "ستلا"

وأشارت الآنسة «هافيشام»بعصاها إلي الكومة الصفراء التي تُغطيها خيوط العنكبوت، وقالت:

ـ هذه كعكة عُرْسي!

ثمَّ استندت بيدها المرتعشة علي كتفي، وأمرتني قائلةً:

ـ والآن..فإنَّ كُلّ الشغل المطلوب منك هو أن أستند علي كتفك وتدور معي حول الغرفة ..

وعلي الفور استندت علي كتفي وشرعنا ندور ببطءٍ شديدٍ حول الغرفة مرَّات ومرَّات.. وكان هذا هو الشغل المطلوب مني، بالإضافة إلي جولة لعب بورق «الكوتشينة» مع «ستلا» تحت مراقبة الآنسة «هافيشام».. وينتهي الأمر أخيراً بتغذيتي ببعض الطعام مثل الكلاب!

واستمر الحال علي هذا المنوال لمدة ثمانية شهور وربما أكثر، ولكن بمرور الوقت تقدمت قليلاً في اللَّعب..ومع ذلك فقد ظلت «ستلا» تقسو عليَّ بشِدّةٍ، وكانت دائماً تجد أيّ نقص، أو أيّ مناسبة لتسخر مني.

«هافيشام» تترك «بيب» و «ستلا» يلعبان بمفردهما

ولكن هذا النظام اختلف في مرَّتين..المرَّة الأوَّلي حدثت حين كانت «ستلا» تقودني لصعود السُّلَّم، فقد شاهدت رجلاً في منتصف درجات السُّلَّم، وقد توقف عن النزول وأخذ يتفحصني ثمَّ سأل «ستلا» :

ـ مَنْ هذا الفتي ؟

فأجابت «ستلا» بلا عنايةٍ أو اهتمامٍ:

ـ مُجرَّد ولد!

كان الرَجل ضخم الجسم، كبير الرأس..وكان من الصعب عليَّ أن أستريح لمنظره وهو يرمقني بارتيابٍ، بعينيه الحادتين تحت حواجبه الثقيلة السوداء..

ثمَّ قال الرَّجل:

ـ هل هو من الجيران ؟

فأجبتُ علي الفور:

ـ نعم سيِّدي..أنا «بيب» ..

وتأملني الرَّجل لحظة، ثمَّ أزاحني عن طريقه باحتقارٍ، ولهذا فقد نسيته ونسيت مُقابلته، لأنَّه حتي تلك اللَّحظة كان عديم الأهمية بالنسبة لي.

أمَّا المرَّة الثانية التي اختلف فيها هذا النظام، فحدثت حين تركتنا الآنسة «هافيشام» أنا و «ستلا» لكي نلعب الورق أكثر من الوقت المُعتاد، وفي هذه المرَّة تأنيت كثيراً وأنا أرتب أوراق اللَّعب فكسبت الجولة..وأثنت عليَّ الآنسة «هافيشام».

"بيب" يُقدِّم أوراقه الرسمية للآنسة "هافيشام"

ويبدو أنَّ هذا الثناء قد أثَّر في نفس «ستلا» لأنَّها عندما كانت توصلني إلي البوابة، توقفت واستدارت نحوي، وقالت:

ـ تعال..يمكنك الآن أن تقبلني..إذا كنت راغباً في ذلك!

وقدَّمت إليَّ خدها، فقبلته..وحتى تلك اللَّحظة كنت علي استعداد أن أُضحي بأيّ شيء في سبيل قُبلة واحدة من «ستلا» ! ولكنها حتي وهي تمنحني هذه القُبلة،كانت تتكلم بالطريقة المتغطرسة المُتعالية التي كلمتني بها الآنسة «هافيشام»حين أثنت عليَّ.

كانت «ستلا» تُقَلِد السيِّدة العجوز في كُلِّ شيءٍ..حتي في طريقة إعطائها البقشيش لفتي من العوام مثلي، استطاع أن يفعل شيئاً يستحق الثناء.

وفي يومٍ ما..حين كانت الآنسة «هافيشام»، تضع يدها لتستند علي كتفي لتقوم بالجولة المُعتادة، قالت لي:

ـ يبدو أنَّك تزداد طولاً يا «بيب»!

"بيب" يصبح صبياً رسمياً لـ "جو" الحدَّاد

ثمَّ سألتني عمَّا إذا كان زوج أختي الحدَّاد مازال متمسكاً بي لكي أصبح صبيه بصفةٍ رسميةٍ، فقلت لها:

ـ إنَّ ذلك هو أعز أمنية لصديقي «جو»!

وهنا قالت لي:

ـ إذًا..فقد حان الوقت لتصبح هذه الأمنية حقيقة..دعني أري الأوراق الرسمية.

وعلي هذا فقد ذهبت إلي مجلس المدينة في صحبة أختي، و«جو»، والعمّ «بامبلشوك» وهناك قاموا بتسجيل اسمي رسمياً لأصبح صبياً لـ «جو».

وعندما قدَّمت الأوراق الرسمية للآنسة «هافيشام»لتراها كما طلبت من قبل، وافقت علي ذلك، وأعطتني مبلغاً عظيماً من النقود..خمسة وعشرين جنيهاً ذهبياً، وقالت لي:

ـ لقد كنت ولداً لطيفاً..وهذه هي مكافأتك..ولا تتوقع أكثر من ذلك..ولا تحضر إلي هنا بعد الآن..لقد أصبح «جو» سيِّدك وأستاذك.

وعندما عدت إلي البيت وشاهدوا المكافأة التي حصلت عليها، أصبحت أختي أكثر اقتناعاً من أيّ وقت مضي، بأنَّ الآنسة «هافيشام»ما زال لديها بعض الخطوات الخاصَّة بمستقبلي.. فوافقها العمّ «بامبلشوك» علي هذه الفكرة، وذكَّرنا جميعاً بأنَّه كان السبب المباشر في تقديمي إلي الآنسة «هافيشام»، ولولاه لما تمت هذه المعرفة!

أمَّا «جو» فقد كان في غاية السَّعادة لأني أصبحت صبيه رسمياً.

ورَغْم أنَّ ذلك هو بالضبط ما كنت أسعي إليه وأتمناه فيما مضي.. إلَّا أني أصبحت الآن غير راغب في الوقوف أمام فرن الحِدَّادة..بل وغير راغب أيضاً في أن أعيش حياتي كحدَّادٍ!!

لقد كانت معرفتي بالآنسة «هافيشام»، و «ستلا» قد غيَّرت مشاعري تماماً!

الحب يعرف الطريـق إلي قلبه

Love knows the way to his heart

مرَّت الأيام وأنا أعمل كصبي حدَّاد..وفي كُلِّ يوم، كانت كراهيتي تزداد لهذه المهنة..كان يُخيِّل إليَّ في بعض الأوقات أن «ستلا» تطل عليَّ من فتحة فرن الحِدَّادة.. وهي تري وجهي ويديَّ وقد علاهما الهَبَاب الأسود..فتضحك بملء فمها وهي تحتقرني، وتزدريني، وتسخر مني!

فكَّرت مرَّة أن أهرب من هذه المهنة لأعمل في البحر، ولكني خشيت أن أؤذي مشاعر «جو» بهذا الفعل المُشين، أو أُحطم وهمه الكبير بأنَّ مهنة الحِدَّادة مهنة طيبة وجميلة! ولذلك فقد أرغمت نفسي علي إخفاء مشاعري عن «جو» ..

لقد كنت تعساً شقياً، ولكني كنت دائماً أُشعرهُ بأني سعيداً فرحاً.. وبعد مرور سنة، أصبحت لا أطيق منع نفسي من رؤية «ستلا»، والآنسة «هافيشام»، أكثر من ذلك! وما أن وافق «جو» علي إجازتي ليوم واحدٍ، حتي وجدت نفسي في الطريق إلي بيت الآنسة «هافيشام»..ومرّ وقت طويل وأنا واقف أمام البوابة..أستجمع قوايّ لأدقّ الجرس.

وجاءت امرأة لتري مَنْ الطارق..وقد قدَّمت لي نفسها باعتبارها إحدى بنات العمومة للآنسة «هافيشام»..وكنتُ علي يقينٍ أنَّ هذه

المرأة تريد أن تطردني ولا تسمح لي بالدخول، لولا أنَّها لا تملك مثل هذا الحق إلَّا بعد أن تأخذ الأوامر من الآنسة «هافيشام» رأساً.

ولحُسن الحظ فقد سمحت الآنسة «هافيشام»بدخولي..وكان كُلّ شيء بالبيت كما هو مثلما تركته آخر مرَّة.

قالت لي الآنسة «هافيشام»فور استقبالي:

ـ آه! أرجو ألا تطلب شيئاً لنفسك، فلن أُعطيك أيّ شيء بالمرَّة!

فأجبت دون تردُّد وعلي الفور:

ـ لا يا آنسة «هافيشام»..فقد جئت لأخبركِ بأنَّ عملي كصبي حدَّاد يسير علي نحوٍ حسنٍ.. وانأ أشكركِ لأنَّكِ ساعدتني علي ذلك.

فقالت:

ـ إذا كان الأمر كذلك فهذا شيء طيب، وفي استطاعتك أن تحضر لزيارتي بين الحين والآخر، ويمكنك أن تحضر في عيد ميلادك القادم.

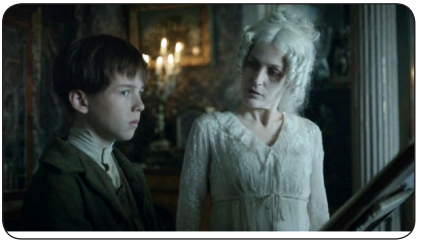

"بيب" يبحث عن "ستلا" بنظراته الحائرة

وعندما لاحظت أني أنظر حولي باحثاً عن شيءٍ ما، أدركت ما أُفكِّر فيه..فابتسمت ابتسامةً ماكرةً خبيثةً، وهي تقول:

ـ أراك تبحث عن «ستلا» ..أليس كذلك ؟!

فقلت علي الفور:

ـ نعم يا سيِّدتي..وأرجو أن تكون بخيرٍ.

فقالت، ونفس الابتسامة علي فمها:

ـ إنَّها بخيرٍ..لقد سافرت إلي خارج البلاد..وهي الآن تتعلَّم لكي تصبح سيِّدة، إنَّها الآن أكثر جمالاً من أيّ وقت مضي..وتحوز إعجاب كُلّ مَنْ يُشاهدها..هل تشعر بأنَّك افتقدتها ؟

وأطلقت ضحكة حقودة وهي تسألني هذا السؤال! ولكني لم أجبها بشيءٍ.

وانتهت المقابلة..وأسرعتُ بالخروج من الحجرة..وهبطت درجات السُّلِّم وخرجت من البيت..وسرت في الطريق عائداً إلي بيتي..وما زالت ضحكتها الحقودة ترن في أذني!

كان ظلام اللَّيل قد حلّ وأنا أقترب من البيت، وقد أدهشني أني رأيت جميع أنوار البيت وورشة الحِدَّادة مضاءة..وعندما اقتربت أكثر، رأيت عديداً من الناس يتجمعون في الفناء الخارجي، فبدأت أجري.. وقد أفسح لي الناس الطريق عندما شاهدوني..

وفي المطبخ رأيت مجموعة أخري من الناس متجمعين علي شكل حلقة.وكان «جو» يقف بينهم، ومعه طبيب القرية.وعلي الفور أفسحوا لي مكاناً لأري منه ما يتجمعون حوله..

كانت أختي راقدة علي أرض المطبخ بلا حِراكٍ، وهي غائبة عن الوعي تماماً، وتنزف الدماء بغزارةٍ من جرحٍ شديدٍ برأسها..

ووضع «جو» ذراعه حول كتفي، وقال يشرح لي الأمر:

ـ والآن يا فتي..يجب أن تتذرع بالشجاعة..لقد تسلَّل شخص شرير إلي هذا المطبخ وضرب أختك علي رأسها!

فقلتُ وأنا ألهث:

ـ هل ما زالت حيّة يا «جو» ؟

وعندئذ أجاب الطبيب:

ـ نعم حيّة..ولكن من المحتمل ألا تعود إلي حالتها الطبيعية!

وقامت الشرطة بتحقيق الحادث، وسألت كُلّ فرد في المنطقة. ولكن أحداً لم يُشاهد الجريمة حين وقعت..وكُلّ ما قيل أنَّ شخصاً ما قد تسلَّل إلي المطبخ..وفاجأ أختي حين كانت تقف أمام الموقد، وضربها بشيءٍ ثقيلٍ علي مؤخرة رأسها..

.. وعلي هذا استمر التحقيق لأسابيعٍ طويلةٍ، دون أن يُعرف مَنْ الجاني!

وكنتُ أعرف أنا، و «جو» أن أختي قد اكتسبت عداوات كثيرة بسبب سَلاَطَة لسانها، وحِدة طباعها فلم أكن أنا الشخص الوحيد في هذه القرية الذي تلقي الضَرْبَات العنيفة من قبضتها القوية.

وكنا نعرف أنَّها كانت مكروهة تماماً من العديد من الناس..ولا بدّ أنَّ واحداً منهم هو الذي ارتكب هذه الجريمة..ولكنَّنا لم نذكر عن هذا الموضوع شيئاً!

ظلت أختي حيّة، ولكنَّها فقدت ذاكرتها وأصبحت عاجزة تماماً عن الكلام، وبالتالي فقد تغيَّرت شخصيتها وعاداتها، أصبحت هادئة، صبورة، لا تطلب شيئاً سوي أن تُشير بيدها لكي نضعها جوار المدفأة، تماماً مثل قطة عجوز!

كانت «بيدي» فتاة في البداية كان «جو» قلِقاً ومضطرباً بسبب الحالة التي آلت إليها زوجته، ولكنه بالتدريج بدأ يحس بالهدوء والمتعة خصوصاً بعد أن جاءت، «بيدي» Biddy لتعيش معنا،لكي تخدمنا وتعتني بنا.

كانت، فتاة يتيمة من فتيات القرية، تربطها علاقة قرابة بعيدة بالسيِّد«ووبسل» كاتب الكنيسة.وكانت ذكية بشكلٍ يُثير الإعجاب، وقد تقدَّمتُ في القراءة والكتابة بفضل توجيهاتها وإرشاداتها..أمَّا بالنسبة إلي قدرتها علي الطبخ فكانت طباخة ماهرة..أكلنا أنا، و «جو» من صنع يديها ألذ وأشهى الوجبات التي لم نذق مثلها من قبل مطلقاً.

وكانت تعطف علي أختي وتُعاملها برقةٍ، ووفرت لنا جميعاً كُلّ أسباب الراحة والنظافة. وأصبح في استطاعة «جو» لأوَّل مرَّة في حياته أن يذهب إلي حانة القرية ليتناول كأساً من البيرة، ويتمتع بحديثٍ طيبٍ مع الرِّجال الآخرين.

وبدأت أثق في «بيدي» لأنها كانت ودودة عطوفة، ولها آراء تتصف بالحكمة..وإليها وحدها أفضيت بسرّي..سرّي الذي لم أبح به لأحدٍ قبلها، قلت لها ذات يوم:

ـ أُريد أن أصبح جنتلمان يا «بيدي»،، وأترك مهنة الحِدَّادة!

فرفعت عينيها عن القماش الذي كانت تخيطه، وقالت:

ـ من أجل «ستلا» ..أليس كذلك ؟! لأنَّها لا تُريدك حدَّاداً!

ـ هذا صحيح يا «بيدي»!!

..وشعرت بالخجل من نفسي، ومن «ستلا» ...

❊ ❊ ❊ ❊

الـثروة التي هبطت من السماء
The wealth that fell from the sky

انقضت نحو أربع سنوات منذ أن عملت صبياً لـ «جو» عندما ظهر السيِّد «جاجرز» Mr. Jaggers أمام باب بيتنا، لقد تعرَّفت عليه علي الفور..لقد كان نفس الرَّجل الذي قابلناه أنا، و «ستلا» علي درجات السُّلِّم ببيت الآنسة «هافيشام» منذ سنوات مضت..نفس الرَّجل بعينيه حادة النظرات، وحواجبه الكثيفة السوداء..

قال، وكأنَّه يتمتَّع بنفوذٍ عظيمٍ:

ـ أعتقد أنَّ هذا هو بيت الحدَّاد وصبيه «بيب» ؟

فقال «جو» :

ـ هذا صحيح يا سيِّدي.

فقال الرَّجل بتؤدةٍ وبكثيرٍ من الوقار:

ـ اسمي «جاجرز» وأنا أعمل مُحامياً في «لندن» ..وقد جئت هنا بناء علي طلب أحد عملائي.

تأثَّر «جو» بالطريقة الفخمة التي كان يتحدَّث بها الرَّجل، فقاده إلي حجرة الجلوس..حيث سبقتهما إلي هناك لكي أرفع الأغطية عن المنضدة والكراسي والأريكة.

وسحب السيِّد «جاجرز» الكرسي إلي جوار المنضدة، ووجه إلي «جو» نظرات صارمة، وبدأ يقول:

ـ لقد جئت إلي هنا لأعرض عليك أن تتخلي عن «بيب» كصبي لك، وهذا من أجل مصلحتك، فكم تطلب لكي تعفيه من العمل معك ؟

فأجابه «جو» بلا تردُّدٍ:

ـ لا أطلب أيّ شيء إطلاقاً..ولا يمكن أن أقف كعقبةٍ في طريق «بيب» ما دام ذلك في مصلحته..

المحامي"جاجرز" يُعلن عن الثروة التي هبطت من السماء

وهنا التفت السيِّد «جاجرز» إليَّ، وقال:

ـ لديّ تعليمات بأنْ أُخبرك بأنَّك ستصل أخيراً إلي عالم الثروة والمال..ويُريد الشخص الذي سيمنحك الثروة أن تتأهل من الآن لكي تصبح قادراً علي إدارتها، ولهذا فإنَّ هذا الشخص يُريد منك أن تتعلَّم لكي تصبح«جنتلمان» لديه آمال عظيمة في مستقبلٍ مزهر بالثراء..

وفاض بي إحساس عظيم بالسَّعادة والفرح فها هو حُلمي يتحقَّق أخيراً، وها هي الآنسة «هافيشام»تُحوِّل خيالي العارم إلي حقيقةٍ واقعةٍ.

وواصل السيِّد «جاجرز» حديثه قائلاً:

ـ والآن يا سيِّد «بيب» هناك بعض الشروط التي لا بدّ أن تعرفها، أوَّلاً..فإنَّ هذا الشخص يُريد منك أن تتمسك دائماً باسم «بيب»، ثانياً.. إنَّ اسم ذلك الشخص المُتبرِّع لك يجب أن يظلّ سرّاً إلي أن يُعلنه هو بنفسه وقتما يُريد..وإذا كنت خمَّنت اسم هذا الشخص فيجب أن تحتفظ بذلك لنفسك وتلزم الصمت..فهل هذا واضح ومفهوم ؟

فأومأت برأسي موافقاً.

ـ وهل قبلت هذه الشروط ؟

فأومأت برأسي موافقاً مرَّة أخري، وأكَّدت للسيِّد «جاجرز» أنَّ هذه الشروط واضحة تماماً، ومفهومة، وسألتزم بها وأطيعها.

وصمت السيِّد «جاجرز» فترة..لعلّه كان يُريد أن يهيئنا لسماع كلماته الأخيرة بقدرٍ من الاهتمام، لذلك نهض قائلاً:

ـ أمَّا بالنسبة للإجراءات والاستعدادات فقد قلت لك أن أمامك آمالاً عظيمةً في مستقبلٍ زاهرٍ.والآن ياعزيزي..فقد خُصِّص لك مبلغ كبير من المال..مبلغٌ يكفي وزيادة لمصاريف تعليمك ونفقات معيشتك..وسأحتفظ بهذا المبلغ ليكون تحت تصرُّفك، وللصرف منه عليك أوَّلاً بأوَّلٍ.. لذلك فيجب أن تعتبرني وصياً عليك!

وعندما حاولت أن أشكره أشار لي بيديه، وهو يقول:

ـ كلا! كلا..شكراً لك..فأنا قد حصلت علي أجرٍ كبيرٍ نظير هذه الخدمات، والآن..أرجو أن تستمع جيداً إلي المقترحات التالية:عليك

بالحضور إلي «لندن» فوراً بعد أن تشتري بعض الملابس المناسبة.. وهناك سوف تسكن مع «هربرت بوكيت» Herbert pocket ، وهو جنتلمان صغير في مثل سنك، ولعلَّك تستطيع أن تتعلَّم منه بعض العادات والتقاليد الحسنة..كما أني اقترحت أن يكون والده مُعلِّماً خاصّاً لك..فما رأيك في كُلِّ هذا ؟

فقلتُ مندفعاً:

ـ كُلّ ما تقوله يا سيِّد «جاجرز» سأقبله..ولقد سمعت عن عائلة «بوكيت» من قبل، إنَّهم ينتمون بصلة القربى إلي الآنسة «هافيشام»..

ولم تتأثَّر ملامح السيِّد «جاجرز» بأيّ شيء عند سماع اسم الآنسة «هافيشام»، وبدا وجهه كما لو كان قد نُحت من الحجر، وقال:

ـ نعم..إنَّهم ينمتون بصلة قربي إليها.والآن..إليك بعض النقود الخاصَّة بشراء الملابس ومصاريف الرحلة..

وقدَّم لي عشرين جنيهاً من الذهب..وترك بطاقة صغيرة تحمل اسمه وعنوانه في «لندن» .. وودعنا..وخرج.

وظللنا أنا، و«جو» جالسين علي الأريكة صامتين مشدوهين كما لو كنا قد أصبحنا تمثالين من الحجر..إلي أن جاءت «بيدي» فأفاق «جو» من دهشته، وأخذ يقصّ عليها حكاية الحظ السعيد والثروة التي هبطت عليَّ من السماء..ثمَّ أندفع «جو» بعد ذلك نحو المطبخ ليحاول إفهام أختي هذه الحكاية.

وهنأتني «بيدي» بحرارةٍ وصدقٍ، وقالت لي بهدوءٍ:

ـ ها هو حلمك الأكبر قد تحقَّق..فهل يا تُري ستُتحقِّق أحلامك الأخري؟

كنت أعلم في نفس الوقت أن «بيدي» تعتبر كنتُ أعلم أنَّها تُشير بذلك إلي حُبّي وعشقي تجاه «ستلا» ..ولكني كنت أعلم في نفس الوقت أنَّ، تعتبر «ستلا» فتاة مغرورة لا تستحق هذا الحُبّ الصادق الذي أكنه لها، لذلك لم أجد شيئاً لأقوله سوي أن أومأت برأسي، قائلاً:

ـ مَنْ يدري ؟

أمَّا أختي أصبحت الآن غير قادرة علي الفهم والإدراك، ورَغْم ما بذلناه من جهدٍ في الشرح، إلَّا أنَّنا لم ننجح في إفهامها حقيقة ما حدث..رَغْم أنَّها ابتسمت مسرورة بما لاحظته من زيادة الاهتمام بها علي هذا النحو المفاجئ!

وفي صباح اليوم التالي، استيقظت مبكراً، وأسرعت بالذهاب إلي دكان السيِّد «تراب» Mr. Trapp خَيَّاط القرية..ولكن صبيه أخبرني بأنَّه ما زال يتناول طعام إفطاره بمسكنه الذي يقع خلف الدكان.. واضطررت إلي الانتظار فترة أوشك أن ينفد فيها صبري..إلي أن دعاني الخيَّاط أخيراً، فقابلته في مسكنه..

كان لا يظنّ أنَّ سبب مجيئي يستأهل ويستوجب التوقف عن تناول إفطاره، ولذلك فقد وقفت أمامه دون أن يهتم بدعوتي إلي الجلوس أو مشاركته في طعامه!

وأخرجت من جيبي بعض الجنيهات الذهبية، وقلتُ له:

ـ سيِّد «تراب» ..لقد وصلتني بعض النقود وأريد منك خدمة عاجلة..

وفي لمح البصر، توقف الخيَّاط عن تناول الطعام، ومسح أصابعه، وهبّ واقفاً، واتسعت عيناه من شِدّة الدَهْشة..وشرحت له الأمر:

ـ إنَّ عليَّ أنْ أتوجه إلي «لندن» بصفةٍ عاجلةٍ وأُريد منك أن تصنع لي حُلَّة علي الموضة الحديثة كي ارتديها في تلك الرحلة..

ودعاني الخيَّاط فوراً إلي دكانه، وبدأ يمارس عمله بهمةٍ ونشاطٍ، وأمر صبيه بإنزال مجموعة من أثواب القماش المرصوصة علي الرفوف واحداً بعد الآخر..وأخذ يفرد لي هذه الأثواب ليفرجني علي الأقمشة حتي أختار من بينها ما يناسبني..ورَغْم أنَّه قد أثني عليها جميعاً، إلَّا أنَّه ساعدني في اختيار النوع واللَّون المناسب لشاب مثلي..ثمَّ أخذ مقاييس جسمي وأكَّد لي أنْ دقة هذه المقاييس سيُساعد في تفصيل حُلَّة ممتازة..

ثمَّ قام بعد ذلك بتوصيلي إلي خارج الدكان، وفتح لي الباب بنفسه وودعني بحفاوةٍ بالغةٍ.. وكانت هذه تجربتي الأوَّلي في معرفة مدي التأثير العظيم للنقود في نفوس الناس!

وما إن أنتهي الخيَّاط من صناعة الحُلَّة وحياكتها، حتي ارتديتها علي الفور، وأخذت طريقي إلي بيت الآنسة «هافيشام»لأودعها.. ولكنَّها قالت لي أنَّها عرفت حكاية الحظ السعيد والثروة التي جاءتني عن طريق السيِّد «جاجرز» ..وتمنت لي النجاح والتوفيق، ثمَّ أشارت بعصاها لكي أنصرف..

كنتُ أُريد أن أشكرها علي كُلِّ ذلك.. ولكني تذكَّرت الشروط التي أملاها عليَّ السيِّد «جاجرز» بعدم الكشف عن اسم المُحسن الذي تبرَّع لي بكُلِّ هذه الثروة حتي وإن كنت أعرفه..فلزمت الصمت وأنا أسمع آخر الكلمات التي قالتها الآنسة «هافيشام»:

ـ وداعاً يا «بيب»، وعليك أن تحتفظ دائماً باسم «بيب» كما تعرف!

وكُلَّما اقترب موعد رحيلي ازداد «جو» كآبةً وحزناً، وقد قال لي بتأثرٍ شديدٍ:

ـ سأفتقدك حقاً يا «بيب» ..أفتقد الصبي المُطيع الذي كان يُساعدني في أعمال الورشة.. أفتقد الصديق العزيز الذي أحبّبته منذ أن كان طفلاً..ما أسعد اللَّيالي التي كُنا نجلس فيها معاً أمام المدفأة..

ونزلت من عينيَّ الدموع لأنَّ شغفي بالسفر إلي «لندن»، وإحساسي بأنَّ آمالي وأمنياتي الكبري في سبيلها إلي أن تصبح حقيقة واقعة.. وهذه الحالة الطارئة التي غيَّرت مجري حياتي..كُلّ ذلك قد جعلني أوشك أن أنسي أعز أصدقائي.. «جو»!!

❊ ❊ ❊ ❊

حياة جديدة في لندن
A new life in London

سافرت إلي «لندن» راكباً عربةً تجرَّها أربعة جياد قطعت المسافة في نحو خمس ساعات.وكنت أشعر بالرَّهبة حيال هذه المدينة الكبيرة، إلَّا أني صُدمت حين رأيتها مدينة غير نظيفة، ملئي بشوارعٍ ضيقةٍ مُتَعَرِّجة قبيحة الشكل!

وذهبت مباشرة إلي مكتب السيِّد «جاجرز» حيث أخبرني بقيمة الحِصَّة المُخصَّصة لي من المال، وهي مبلغ كبير أكثر ممَّا كنت أتوقعه، كما أعطاني مجموعة من البطاقات المالية التي أستطيع أن أتعامل بها مع الخيَّاطين، وأصحاب المحلات الأخرى التي يمكن أن أبتاع منها حاجياتي علي الحساب، علي أن تُرسل الفواتير إلي مكتب السيِّد «جاجرز» ليقوم بدفعها وتسوية حساباتها.ورضيت تماماً بتلك الطريقة التي تُسهِّل أمور حياتي، كما تُساعد السيِّد «جاجرز» في مراقبة نفقاتي.

ونادي السيِّد «جاجرز» علي كاتبه السيِّد «جون وميك» John wemmick ليقوم بتوصيلي إلي الحجرات المُخصَّصة لإقامتي مع الشاب الصغير «هربرت بوكيت» .

كان السيِّد «وميك» رجلاً قصيراً ونحيفاً، تتألق عيناه بنظراتٍ حادةٍ.وقادني الرَّجل إلي مبني كبير يُسميّ «خان برنارد»، وهو عبارة عن مجموعة من المباني يتوسطها حوش كبير.. ودخلنا البوابة، ثمَّ

«هربرت» صديق «بيب» المخلص الحميم

اتجهنا إلي أحد تلك المباني، وصعدنا درجات السُّلَّم إلي حجرات الطابق العلوي، ولكنَّنا وجدنا علي الباب ورقة مُعلَّقة مكتوب عليها: «سأحضر حالاً»، ولأنَّ الباب كان غير مغلق، لذلك فقد دلفنا إلي الداخل، وعندئذ قال لي السيِّد «وميك» :

ـ أعتقد أنَّك لستُ في حاجةٍ إليَّ الآن.. وعليَّ أن أنصرف، وأعتقد أنَّنا سنتقابل بعد ذلك بين حين وآخر لأني أُشرف علي الحسابات المالية الخاصَّة بمكتب «السيِّد جاجرز» .

وشكرته كثيراً قبل أن ينصرف.وأخذت أفحص تلك الحجرات المُخصَّصة لسكني باعتبارها البيت الجديد الذي سأعيش فيه حياتي في «لندن» ..كانت الحجرات كبيرة وتبدو أوسع ممَّا هي عليه فعلاً، وذلك بسبب قلة ما فيها من قطع الأثاث، كما كانت تبدو غير نظيفة بدرجةٍ كافيةٍ، وإنْ كان هذا أمراً محتملاً باعتبارها مسكونة بشخصٍ أعزبٍ..

وبعد نحو عشرين دقيقة، سمعت وقع خطوات بالصالة، وظهر شاب صغير يافع، يحمل في يده صندوقاً صغيراً به كمية من ثمار الفراولة.

ابتسم الشاب ابتسامةً مُرحبةً وهو يلتقط أنفاسه، وقال:

ـ سيِّد «بيب» !

فابتسمت مُرحباً، وقلت:

ـ نعم يا سيِّد «بوكيت».

واعتذر لي قائلاً:

ـ آسف لتأخري.. فقد كنت لا أعرف الموعد الحقيقي لوصول العربة إلي «لندن» ..ورأيت أنَّه من الأفضل أن أُقدِّم لك مع غذائك بعض الفواكه الطازجة لذلك فقد خرجت لأشتريها..

وكان هذا اللقاء أوَّل دليل علي أنَّ «هربرت» شخص طيب وعطوف. وبدأنا الحديث دون أن يتيح أمامي فرصة لأشكره، بينما استمر هو في التحدُّث عن ترتيب حياتنا معاً.

وفي مطعم بالمبني المجاور كنا نتناول وجباتنا، وبترتيبٍ سابقٍ مع السيِّد «جاجرز» كنت أقوم بالتوقيع علي فواتير الحساب الخاصَّة بنا معا، فقد كان «هربرت» فقيراً رَغْم أنَّه جنتلمان حقيقي.

وقد أعترف لي «هربرت» بفقره بطريقةٍ صريحةٍ ومهذبةٍ جعلتني أُحبَّهُ أكثر وأكثر في كُلِّ دقيقة تمرّ منذ لقائنا.وقد كان يتقاضي دخلاً

متواضعاً من البنك الذي يعمل فيه، وهو دخل يكفي بالكاد للوفاء بالمصاريف النثرية.

وأحضر الخادم لنا غداءاً شهياً يتكوَّن من دجاج مُحَمَّر، وزَبد، وجُبْن، وخُبْز..ورُبَّما بدا لي مثل هذا الغذاء أحسن ممَّا هو عليه فعلاً، علي الأقلّ الإحساس بأني قد أصبحت الآن مستقلاً، وفي «لندن» !

ولا أدري إن كان «هربرت» يعرف قصَّتي عن طريق السيِّد «جاجرز»، أو عن طريق الآنسة «هافيشام» التي تمت إليه بصلة القربى.. ولكني رأيت أن أحكيها له بنفسي، ولذلك فقد استغرقت ساعة كاملة حكيت له فيها كُلّ التفاصيل.. وعندما انتهيت، طلبت منه أن يُصحِّح لي عاداتي وتصرُّفاتي وأن يرشدني إلي طريقة الحياة اللندنية.

الرسالة التي تلقتها "هافيشام"من خطيبها المُخادع

وطال علينا الوقت ومازلنا جالسين إلي المائدة نتناول طعامنا ونتحدَّث، ثمَّ بدأ هربرت يحكي لي قصَّة حياة الآنسة «هافيشام»، قائلاً:

ـ لقد ماتت أُمّها حينما كانت طفلة صغيرة، وقد أهملها والدها،ولكنها ورثت عنه ثروة طائلة..علي فكرة يا «بيب» ليس من المُعتاد هنا في «لندن» أن تضع السكين في فمك أثناء تناول الطعام، فالشوكة هي المُخصَّصة لهذا الغرض..هذه ملاحظة بسيطة!

قال هذه الملاحظة برقةٍ وبلطفٍ فلم أغضب، بل علي العكس فقد شكرته علي تنبيهي إلي ذلك.

وأكمل «هربرت» القصَّة التي كان يرويها، فقال:

ـ وقعت الآنسة «هافيشام» في حُبِّ رجل أنيق كان أبي لا يثق فيه أبداً..ولكنها أعطته مبالغ كبيرة من النقود أثناء فترة خطبتهما..وفي اليوم المُحدَّد للزفاف..أرسل هذا الرَّجل رسالة يتنصل فيها من هذا الزواج..وقد استلمت الآنسة «هافيشام» هذه الرسالة السَّاعة..

فقاطعته علي الفور:

ـ في السَّاعة التاسعة إلِّا عشرين دقيقة بينما كانت ترتدي ملابس الزفاف..

فقال «هربرت» :

ـ بالضبط..فقد أوقفت عقارب جميع السَّاعات الموجودة في بيتها عند هذا الوقت، وأمرت بعدم المساس بأيّ شيء من ترتيبات الحفل منذ تلك اللَّحظة حتي يومنا هذا..ملاحظة صغيرة جدّاً يا عزيزي «بيب» ..لا داعي وأنت تشرب بقية ما في كأسك، أنْ تُميل الكأس علي فمك بهذه الطريقة التي جعلت حافة الكأس العليا تمس أنفك..

وبسرعةٍ أنزلت الكأس، وشكرته علي هذا التصحيح، وسألته:

ـ ولكن لماذا لم يتزوَّج هذا الرِّجل من الآنسة «هافيشام»ويسيطر بالتالي علي كُلِّ أموالها ؟

فقال:

ـ لا يدري أحد..ولكننا نعتقد أنَّه كان متزوجاً بالفعل..وهذا يؤكِّد أنَّه كان مُخادعاً طوال الوقت.. وأنَّ حُبّه للآنسة «هافيشام»كان زائفاً!

فهززت رأسي أسفاً، وأنا أقول:

ـ مسكينةٌ يا آنسة «هافيشام»..

وأقول في سرّي: « مسكينةٌ أيتها المُحسنة الكريمة!!» .

❊ ❊ ❊ ❊

زيارة غير مرغوب فيها!

Visit undesirable!

وفي اليوم التالي حصل «هربرت»علي إجازة من عمله، لكي يصطحبني إلي بيت والده ويُقدمني إليه..ومنذ اللَّحظة الأوَّلي أحببت مُعلِّمي..كان ذا شعر رمادي، ووجه مليء بحيوية الشباب، تعلوه ابتسامة طبيعية..وكان يشبه «هربرت» إلي حدٍّ كبيرٍ.

وأفهمني المُعلِّم أني سأتلقى دروس مع زميلين هما: «ستارتوب» Startop الصديق الطيب، و «بنتلي درامل» Bentley Drummle الذي تبادلت معه الكراهية من أوَّل نظرة! وقد علمت فيما بعد أنَّ «درامل» يتبادل هذه الكراهية مع مُعظم الناس لأنَّه كان يعتبر نفسه فوق الآخرين، وأعلي من أن يتبادل الصداقة مع الناس العاديين.كان ينتمي إلي الطبقة الأرستقراطية ولكن أخلاقه وطباعه كانت فظة للغاية.

ولقد قلت لصديقي «هربرت» فيما بعد أنَّ «درامل» هذا يذكرني بعنكبوتٍ كبيرٍ، وأنَّه يُثير في نفسي التَقَزُّز مثل هذا العنكبوت تماماً.

وبدأ مُعلِّمي السيِّد «بوكيت» علي الفور في شرح الدروس التي سأتلقاها، وذكر الأماكن والمعالم المهمة في «لندن» التي يجب أن أزورها.

«بيب» يُعيد تجميل مسكنه

وفي يومٍ ما، بينما كنت جالساً بمسكني في «خان بارنارد» ارتأيت أنَّه من الأفضل أن أقوم بتغيير أثاث جميع الحجرات وأُعيد تجميلها، وأن يكون ذلك مفاجأة طيبة لـ«هربرت».. يجب أن أُغير السجاجيد والستائر وقطع الأثاث الأخري..

وعندما أبلغت السيِّد «جاجرز» بتلك الرَّغبة ضحك، وهو يقول:

ـ كنت علي يقينٍ بأنَّك لن تستغرق وقتاً طويلاً لكي تستوعب جمال الحياة في المدينة..كم تُريد من المال لكي تنفذ رغبتك ؟

وبينما كنت أخمن المبلغ التقريبي الذي يكفي لعمل هذه التجديدات، دخلت مديرة منزل السيِّد «جاجرز» لتُقدِّم وجبة ساخنة من الطعام. كانت امرأة طويلة، في حوالي الأربعين من عُمْرها، ولها عينان واسعتان زائغتا النظرات، وعلي الفور لاحظت أنَّها غير طبيعية، وأنَّ تصرُّفاتها وطريقة عملها تتسم بشيءٍ من الانكسار والضعة، رَغْم أن الطعام الذي قدَّمته كان لذيذاً وطيباً..

وعندما حدَّدت المبلغ التقريبي الذي أُريد الحصول عليه نادي السيِّد «جاجرز» علي السيِّد «وميك» وأمره بأن يصرف لي هذا المبلغ فوراً.

لقد سُر «هربرت» كثيراً بالتجديدات التي حدثت بالمسكن، وظلّ طيلة أسبوع بأكمله يشدّ علي يدي كُلّ يوم مهنئاً أياي علي المنظر الجميل الفخم الذي أصبحت عليه الشقة.

وما إن أنتهي تجميل الشقة علي هذا النحو حتي أخبروني بأنَّ هناك زائر ينتظرني، زائرٌ لا يستطيع التمييز بين سجاجيدي الشرقية المفروشة علي أرض الشقة، وبين البسط الكالحة القبيحة المفروشة بغرفة الجلوس بمنزل أختي!

كانت «بيدي»، قد كتبت إليَّ رسالة تخبرني بأنَّ «جو» يرغب في الحضور إلي «لندن» لزيارتي..وكتبتُ لها رداً أُحدِّد فيه الموعد المناسب لهذه الزيارة..وفي حقيقة الأمر كنت لا أُريد لهذه الزيارة أن تتم..بل وكنت علي استعدادٍ لدفع أي مبلغ من النقود لمنع هذه الزيارة من الحدوث..ولكن كيف يمكن إبلاغ «جو» بكُلِّ ذلك..كيف كان يمكن إبلاغه بأني لم أعد «بيب» الذي كان يعرفه ؟!

وفي اليوم الموعود سمعت وقع خطواته وهو يصعد السُّلَّم، وعندما وصل أمام الباب الخارجي ظلّ يمسح قدميه في الممسحة الموضوعة بعتبة الباب حتي كاد أن يبليها..وأخيراً دخل.. وأمسك بيديّ الاثنتين وأخذ يرفعهما إلي أعلي، ويخفضهما إلي أسفل كما لو كان يُجرب نوعاً جديداً من طلمبات المياه!

وحاولت أن آخذ منه قُبَّعَته لأُعلِّقها في المكان المناسب، وقد لاحظت أنَّها قُبَّعَة جديدة ولكنه تمسك بها وكأنَّها أغلي شيء يمتلكه..

وظلّ يدور بنظرات عينيه متفحصاً كُلّ شيء..وينظر في إعجابٍ إلي «الروب» الذي أرتديه، والي قماشه الفخم الملون بأشكال الزهور.. ولكنه لم يتكلم كثيراً، وأمسك لسانه وظلّ صامتاً.

وسررت عندما وصل «هربرت» أخيراً وتبعه الخادم الذي يحمل لنا الطعام.وقبل أن يجلس «جو» إلي المائدة، تخلي عن قُبَّعَته، ووضعها بعنايةٍ فوق الرَفّ الرخامي بأعلى المدفأة، حيث سقطت عدة مرَّات إلي الأرض، وكان يُعيدها إلي الرَفِّ في كُلِّ مرَّة.

وسأله «هربرت» في أدبٍ ووقارٍ:

ـ سيِّد «جو» هل تُريد شاياً أم قهوةً ؟

فأجاب «جو» :

ـ شكراً لك يا سيِّدي..أُريد أيّ شيء تختاره بنفسك!

ـ إذاً سأصبّ لك بعض القهوة..

فظهرت ملامح الارتياح علي وجه «جو»، وقال:

شكراً يا سيِّدي..ما دمت قد اخترت القهوة فلن أستطيع أن أعارضك في ذلك.. ولكن ألَّا تري أنَّها تُزيد الإنسان انفعالاً!

فقال «هربرت»، وهو يصبّ له بعض الشاي:

ـ فليكن الشاي إذاً..

وهنا سقطت قُبَّعَة «جو» من فوق الرَفِّ، فالتقطها وأعادها إلي نفس المكان!

وقد لاحظت أنَّه كان كثير السرحان حين كان يتناول طعامه، وأنَّه جلس علي مسافةٍ بعيدةٍ من المائدة لدرجة أنَّه أسقط كمية من الطعام أكثر من الكمية التي أكلها!

بعد انقطاع سنوات «ستلا» تدعو «بيب» للقائها

وعندما انصرف «هربرت» شعرت بكثيرٍ من السَّعادة والارتياح، لأنَّنا أصبحنا وحدنا، أنا، و «جو» الذي كان يشعر بشيءٍ من القلق وعدم الارتياح والحرج، رُبَّمَا لأنَّه أحس بما يدور في نفسي حيال هذه الزيارة!

ومع ذلك فقد بدأ «جو» حديثه قائلاً:

ـ والآن أصبحنا وحدنا يا سيِّدي..

فقاطعته علي الفور وصحت غاضباً:

ـ من فضلك يا «جو» ..كيف تُناديني يا سيِّدي!

فأخفض عينيه ونظر إلي الأرض، وهو يقول:

ـ لقد أخطأت بالمجيء إلي هنا يا «بيب» ..إنَّ ملابسي غير لائقة.. أنا أنتمي إلي ورشة الحِدَّادة والفرن والمستنقعات..أنا أعترف بأنَّه كان تصرُّف يتسم بالغباء عندما جئت لزيارتك هنا..ولكني أرجوك عندما تريد رؤية صديقك القديم «جو» .. فتعال إلي الورشة..وأدخل رأسك في فرن الحِدَّادة كما كنت تفعل من قبل..والآن وداعاً يا عزيزي «بيب» وبارك الله فيك..بارك الله فيك..

ولعدة أسابيع تالية، ظللت أشعر بالخجل من نفسي بسبب ما حدث في زيارة «جو» .وقد ازداد هذا الإحساس عندما وصلتني رسالة تخبرني بموت أختي..رَغْم أن خبر موتها جعلني أحس بشيءٍ من الراحة!

ومرَّت عدة سنوات إلي أن بلغت سن العشرين..وفي يوم ما، وصلتني أخبار طيبة..أخبارٌ من الماضي..فقد أنباني السيِّد «جاجرز» بأنَّ «ستلا» قد عادت أخيراً من «فرنسا» France، وأنَّها تنوي أن تعيش في لندن»، وأنَّها تدعوني لمقابلتها.

..يا لها من أخبار سارة عظيمة.

❊ ❊ ❊ ❊

قلبٌ من حجر!
heart from stone

فاضت نفسي بأحاسيس الفرح والسَّعادة.. فها أنا سأري «ستلا» وأقابلها مرَّة أخري بعد كُلّ هذه الغيبة..وانطلقت أُغني وأضحك مسروراً مغتبطاً بكُلِّ شيءٍ في الدنيا..

وكنت أتصوَّر أنَّ «هربرت» سيفرح بسعادتي الغامرة، فقد اعترفت له وأنا أشعر بشيءٍ من الخجل بأني أُحبّ «ستلا» واعتبرها أغلي أمنية في حياتي.

وكنتُ أعتقد أني أُفضي إليه بأحد أسراري المهمة، ولكنه تقبَّل اعترافي كأمرٍ واقعٍ معروف، وقال:

ـ أعرف ذلك!

واندهشت، وقلتُ له متلعثماً:

ـ ولكن كيف..كيف عرفت ذلك ؟

فأجاب ببساطةٍ ومن غير معاناة:

ـ كان مكتوباً في عينيك وأنت تحكي عن طفولتك..وزياراتك لمنزل الآنسة «هافيشام»..

«ستلا» تصطحب «بيب» في حفلات الرَّقص

وشعرت بإحساسٍ غامرٍ من السَّعادة والارتياح وأنا أحكي قصَّة حُبّي لصديقي «هربرت»، وأبدي له إعجابي الشديد بـ «ستلا» وجمالها الرائع الأخّاذ. وبإحساسي الدفين داخل نفسي بأني لا أستحق حُبّها، رَغْم أنَّ فكرة زواجي بها تُعتبر أعظم آمال حياتي.وأنَّني كنت أظن في قرارة نفسي أن الآنسة «هافيشام» كانت تُخطِّط لزواجي من «ستلا»، وإلَّا لماذا جعلت مني جنتلمان ووهبتني كُلّ هذه الثروة!

ووافقني «هربرت» في هذا الاستنتاج، وقال:

ـ إنَّني وكُلّ أقارب الآنسة «هافيشام»يظنون أنَّ الأمر كذلك..

ولكني شعرت بعدم الارتياح بادياً في نظرات عينيه، خصوصاً عندما قال:

ـ الآن يا عزيزي «بيب» ..أُريد أن أقول لك شيئاً لا يسرك، ولكني قبل أن أنطق بكلمةٍ..ينبغي أوَّلًا أن أعترف لك بأني أعيش أيضاً قصَّة حُبّ..والفتاة التي أُحبّها وأعشقها أسمها «كلارا بارلي» Clara

Barley ..وسأرتب لك لقاء لكي تراها بنفسك..وإني أقول هذا حتي لا تظن أنَّ لديّ أي أمل أو رغبة في الزوَّاج من «ستلا» ..

وبطبيعة الحال فإنَّ هذا التصوُّر لم يدر بذهني أبداً، لذلك فقد تركت «هربرت» يواصل حديثه، وهو يقول:

ـ عندما كان السيِّد «جاجرز» يُملي عليك الشروط الخاصَّة بآمالك العظيمة..هل ذكر لك ضمن هذه الشروط أنَّ زواجك من «ستلا» أمر واجب وضروري ؟

فأومأت برأسي، وأنا أقول:

ـ لا..طبعاً!

ـ إذاً فأنت غير مُقيَّد بضرورة الزوَّاج منها..وأنا أطلب منك بمنتهي الإصرار أن تتخلي عن حُبّها!

فتساءلت، وأنا أشعر باضطرابٍ شديدٍ من هول المفاجأة:

ـ ولكن..لماذا..لماذا يا هربرت ؟

فقال بهدوءٍ:

تذكَّر طريقة تربيتها ونشأتها..تذكَّر أنَّ الآنسة «هافيشام»قد جعلتها تتشبَّع بأفكارها ومشاعرها..تذكَّر كيف كانت «ستلا» متعجرفة وباردة القلب..تذكَّر أنَّها تكاد أن تكون صورة طبق الأصل من الآنسة «هافيشام»!

أحسست وكأني علي وشك الانهيار، فقلت والدموع تنهمر من عينيّ:

ـ ولكن لا أستطيع أن أتخلي عن حُبّها أبداً..هذا ليس بيدي..إني أُحبّها أكثر من نفسي..

«بيب» لم يشعر بالسَّعادة وهو بصحبة «ستلا»!

وفي الحقيقة كنت أُقدِّر مشاعر «هربرت» نحوي..ومع أن أوصافه لشخصية «ستلا» قد ضايقتني..إلَّا أنَّها ظلت عالقة بذهني وكامنة في نفسي لمدة طويلة..

وكنت في ذلك الوقت قد بلغت الحادية والعشرين من عُمْري.. بلغت سن الرشد، فأعطاني السيِّد «جاجرز» حرية التصرُّف في أموالي..كما سمح لي بأن أحصل علي قروض محدودة.. وخصَّص لي مبلغ خمسمئة جنيه سنوياً، كما منحني خمسمئة جنيه أخري كهديةٍ من المُحسن الكريم الذي يرعاني بمناسبة بلوغي سن الرشد.

وبطريقةٍ سريةٍ ساعدني فيها السيِّد «وميك» استخدمت حوالي نصف هذه المبالغ في شراء وظيفة لـ «هربرت» في إحدى الشركات الملاحية التي أُنشأت حديثاً..وهي شركة يمتلكها شاب ذكي أمين اسمه «كلاريكار» Claricar كان في حاجةٍ إلي مساعدٍ نشيطٍ، بشرط أن يُساهم في الشركة بجزءٍ من رأس المال.

وتعاقدت مع السيِّد «كلاريكار» علي أن تكون هذه الوظيفة من حق «هربرت»، وقدَّمت إليه جزءاً من رأس المال.كما التزمت بأن أُقدِّم حِصَّة أخري من رأس المال في الوقت المناسب حتي يصبح «هربرت» شريكاً كاملاً في هذه الشركة.

وكان «هربرت» في غاية السَّعادة وهو يخبرني بأمر تلك الفرصة الذهبية التي عرضها عليه السيِّد«كلاريكار»، وقد اعتبرت سعادته هذه خير مكافأة لي علي هذا الصنيع الجميل.وحرصت دائماً علي إخفاء هذا الأمر عن «هربرت» حتي لا يعرف مَنْ هو المُحسن الذي وضعه في هذا المركز.وكان «هربرت» يزداد سعادة في كُلِّ يومٍ يقضيه في عمله الجديد.

وفي ذلك الوقت كانت «ستلا» قد بدأت حياتها الجديدة في «لندن»، وأخذت تتمتَّع بكُلِّ دقيقة فيها.وكانت الآنسة «هافيشام»قد رتبت أمر إقامتها عند سيِّدةٍ أرملةٍ من سيِّدات المجتمع الراقي لها ابنة شابة في عُمْر «ستلا» .وكانت لهذه الأسرة صلات عديدة في المجتمعات الراقية.. ولهذا كانت «ستلا» تدعوني دائماً لمرافقتها إلي حفلات الرَّقص التي تُدعي إليها، ومصاحبتها في جولات الشراء التي تقوم بها.

كان من المفترض أن أصبح سعيداً بكُلِّ ذلك، ولكني لم أحس أبداً بطعم هذه السَّعادة لأنَّ «ستلا» كانت تُعاملني كأخ نصف شقيق لها.. أو كأنَّني أعمل سكرتيراً في خدمتها! ورَغْم أنَّ الكثيرين من الشباب

المعجبين بها كانوا يحسدونني علي ذلك، إلَّا أني لم أجد في ذلك أي سعادة أو متعة!

وفي إحدى الأمسيات سألتني:

ـ بيب هل يا تُري تصدق ما يُقال لك من ضرورة الحذر مني ؟

فسألتها بالتالي:

ـ هل تقصدين تحذيري من الانجذاب إليكِ يا «ستلا» ؟

فأجابت:

«بيب»، و «ستلا» في ضيافة الآنسة «هافيشام»

ـ إذا كنت لا تعرف حقيقة ما أقصده فلا شكّ في أنَّك أعمي لا تري!

ورَغْم يقيني بأنَّ «الحُبّ أعمي» فقد كنت أهرب دائماً في الاعتراف لها بحُبّي! وكنت علي يقين بأنَّها تُطيع الآنسة «هافيشام» طاعةً عمياء..لذلك فقد سئمت أن أظلَّ هكذا عبئاً عليها.. وازدادت بالتالي أسباب تعاستي.

وفي نفس الأمسية أمرتني «ستلا» بأن أستعد لمرافقتها في زيارة الآنسة «هافيشام»التي أرسلت لها دعوة بالحضور لمقابلتها، وقد قالت لي «ستلا» أنَّها لا تُحبّ أن تُسافر وحدها!

وبعد أن تناولنا الطعام علي مائدة الآنسة «هافيشام»جلسنا جميعاً جوار المدفأة، وطوال الوقت لم تستطع الآنسة «هافيشام» أن ترفع عينيها عن التأمُّل في وجه «ستلا»، وقد طلبت منها بشغفٍ أن تحكي لها بنفسها قصَّص ضحاياها من المعجبين الذين أخضعتهم..وعلمت أن «ستلا» كانت تكتب لها قصَّص هؤلاء الضحايا أوَّلاً بأوَّلٍ، لأني لاحظت أنَّ الآنسة «هافيشام» كانت تعرف أسماء كُلّ المُعجبين الذين أخضعتهم «ستلا» ثمَّ نبذتهم واحتقرتهم..وعندما رأيت عينيّ الآنسة «هافيشام» تبرقان من أثر الاستمتاع الشرير بسماع هذه الحكايات، تأكَّدت أنَّها تنتقم الآن من الرِّجال، وتأخذ بثأرها من الرِّجل الذي تخلي عنها في يوم عُرْسها!

وجذبت الآنسة «هافيشام» يد «ستلا» وقربتها منها، ولكن «ستلا» جذبت يدها في ضيقٍ، وبطريقةٍ أغضبت الآنسة «هافيشام»، التي صاحت باكيةٍ:

ـ «ستلا» هل تعبتِ مني ؟

فأجابت «ستلا» بهدوءٍ تام:

ـ لقد تعبت من نفسي!

فصرخت فيها المرأة العجوز:

ـ ما أنتِ إلَّا تمثال من حجرٍ، لا قلب له!

«ستلا» تتهم «هافيشام»بأنَّها كسرت قلبها وحطمته

فردت «ستلا» بنفس الهدوء:

ـ أنتِ التي علمتني أن أصبح بلا قلبٍ!

فبكت الآنسة «هافيشام» وهي تقول:

ـ نعم تصبحين بلا قلبٍ..ولكن ليس ضدي أنا..بل ضد الرِّجال فقط..يجب أن تبادليني الحُبّ الذي أُحبّه لكِ من كُلِّ قلبي..

وعندئذ هزت «ستلا» رأسها، وهي تقول في أسي:

ـ يا أُمي بالتبني..إني مدينة لكِ بكُلِّ شيءٍ..وسأفعل كُلّ ما تطلبين.. ولكني لا أستطيع أن أفعل المستحيل..لقد علمتني كيف أجعل قلبي بارداً كالثلج وصلباً كالحجر..علمتني كيف لا أُحبّ أحد.. ولقد وعيت دروسكِ جيداً..

ولم أستطع مُشاهدة بقية هذا المشهد الغريب العجيب..فتركت الحجرة وخرجت إلي الحديقة ومع ذلك فقد كانت توسلات الآنسة «هافيشام»المنكسرة الذليلة تصل إلي سمعي!

❊ ❊ ❊ ❊

الصدمة المروعة، والوهم الكبير
The Dreadful shock and the great illusion

انقضت عدة شهور بعد انتهاء الاحتفال بعيد ميلادي الحادي والعشرين،وأحسست بأني أصبحت عاجزاً تماماً عن حلّ المشكلة التي صنعتها بنفسي،كنت أرغب في التحرُّر من ديوني والاعتماد فقط علي مبلغ الخمسمئة جنيه التي يهبها لي المُحسن الكريم في كُلِّ سنة.

والحقيقة أنَّ ديوني كانت كبيرة وكثيرة فبالإضافة إلي التزامي بدفع المبلغ الكبير الخاص بالعقد الذي اتفقت عليه لصالح «هربرت» كانت عليَّ ديون أخري للخيَّاط، ولبائع المشروبات، والجواهرجي.. ولكثيرين غيرهم.

والأمل الوحيد الذي كان يراودني للتخلُّص من هذه المشكلة هو أن يقوم المُحسن الذي يرعاني بإهدائي مبلغاً إضافياً في كُلِّ عيد من أعياد ميلادي..وبهذه الطريقة وحدها، أتمكَّن من تسديد ديوني والاستمرار في الحياة الرغدة التي أحيّاها وأعيشها.

وعندما بلغت سن الثالثة والعشرين، أصبحت أضحك ساخراً من «بيب» الذي كان يظنّ عندما وصل إلي سن الحادية والعشرين أنَّ مبلغ الخمسمئة جنيه سنوياً كان يُعتبر ثروة طائلة، ولم أُفكِّر مطلقاً في «بيب» الذي كان يعيش في مقاطعة «كنت» Kent ، ويظن أنَّ مهنة الحِدَّادة التي يمارسها هي أفضل وظيفة في هذا العالم!

لقد توقفت عن تلقي دروسي ولكني واصلت القراءة والاطلاع لعدة ساعات يومياً، وفي إحدى اللَّيالي هبت عاصفة باردة شديدة منعتني من الخروج، ولزمت البيت واستغرقت في القراءة.كنت وحدي لأنَّ «هربرت» كان قد سافر في مأموريةٍ تخص عمله بالشركة الملاحية. ودقت ساعة كاتدرائية «سان بول» Saint Paul القريبة من مسكني، الحادية عشرة قبل منتصف اللَّيل، فقطعت حبل استغراقي في القراءة، ثمَّ تنبهت فجأةً إلي وقع أقدام تروح وتغدو في المَمرِّ الخارجي أمام الباب، ونظراً لأنَّ الريح الشديدة قد أطفأت كُلّ المصابيح التي تضيء السُّلّم والمَمرّ، فقد حملت مصباح القراءة وفتحت الباب لأتبيَّن الأمر، وما أن سطع نور المصباح في ظلام المَمرّ، حتي توقفت الخطوات، فصحت قائلاً:

ـ مَنْ هناك..وماذا تُريد ؟

فجاءني صوت رجل أخذت أتبيَّن ملامحه بالتدريج في ضوء المصباح:

ـ أنا هنا يا سيِّدي أبحث عن السيِّد «بيب»!

وما إن رآني هذا الرَّجل الغريب، حتي تهللت أسارير وجهه وبدا عليه السرور..كان يرتدي ثياباً جديدةً ولكنها خالية من الذوق، وكان ذا شعر رمادي طويل، ويبلغ نحو الستين من العُمْر، إلَّا أن جسمه كان يبدو قوياً مفتول العضلات.

وعندما أصبح قريباً مني مدّ إليَّ يديه اللتين لوحتهما الشمس..ولم أدر ماذا أفعل ؟ إلَّا أني قلت بكثيرٍ من الثبات:

ـ أنا «بيب» ..ماذا تُريد مني ؟

وصمت الرَّجل الغريب برهة، وكأنَّه كان يتوَّقع أن أدعوه إلي الدخول، وتردَّد، وهو يقول:

ـ آه! أُريد أن أشرح لك بعض الأمور!

فاضطررت إلي دعوته للدخول بطريقةٍ جافةٍ.وكنت مندهشاً من فيض الإحساس بالسَّعادة الذي غمرت هذا الرَّجل الغريب بمُجرَّد أن رآني وعرف مَنْ أنا.

وما أن وصلنا إلي غرفة الجلوس حتي ابتسم الرَّجل الغريب ابتسامةً راضيةً مطمئنةً ومدّ إليَّ يده مرَّة أخري حتي ظننته مجنوناً، لذلك فلم أمدّ إليه يدي..فشعر الرَّجل بالإحراج، وتلعثم وهو يقول:

ـ آه! لقد فهمت..وأنت غير مخطئ في هذا علي الإطلاق..ولكن أرجو ألا تشعرني باليأس بعد أن قطعت رحلة طويلة حتي أراك وألقاك!

وخلع الرجل قُبَّعَتهُ ومعطفهُ، وجلس علي مقعدٍ جوار المدفأة، ومدّ يديه إلي النار ليدفئهما، ثمَّ نظر إليَّ قائلاً:

ـ ألَّا يوجد أحد هنا غيرنا ؟

فقلتُ بغضبٍ:

ـ بأيّ حق تسألني هذا السؤال..وما أنت إلّا رجل غريب لا أعرفه.. اقتحم بيتي في هذا الوقت المتأخر من اللّيل ؟!

فهز الرَّجل رأسه مبتسماً، وقال:

ـ أنت رجلٌ شجاعٌ يا «بيب» ..أنا مسرور لأنَّك قد أصبحت شجاعاً إلي هذا الحدّ..

وفي لمح البصر، سطعت بذهني فكرة كالبرق، لقد عرفت الرَّجل،إنَّه السجين الهارب الذي قابلته بين المقابر في ساحة الكنيسة التي تطل علي مستنقعات «كنت» .

وعندما شعر الرَّجل أني قد عرفته مدّ إليَّ يده مرَّة أخري، فمدَّدت إليه يدي مستسلماً هذه المرَّة، وفي الحال رفع الرَّجل يدي إلي فمه وأخذ يُقبلها مُعبِّراً عن الاعتراف بالجميل، وقال:

ـ لقد كنت نبيلاً وكريماً معي يا بُني..وسأظل أذكر أبداً «بيب» النبيل الكريم الذي قابلته يوماً ما في الماضي البعيد..

وعندما أوشك أن يحتضنني، وضعت يديَّ علي صدره ودفعته بعيداً عني، وقلتُ له بحزمٍ:

ـ إذا كنت قد جئت الآن لتشكرني بعد هذه المدة الطويلة فإنَّ ذلك غير ضروري ولا أهمية له، وإذا كنت قد ساعدتك وأنا طفل صغير، فلعلك قد اخترت لنفسك طريقاً صالحاً وحياةً أفضل من حياتك السابقة..وعلي أيّة حالٍ..فأنا لا أستطيع أن أوفر لك الآن أيّة حماية!

صمت الرَّجل طويلاً، وأخذ يدور في أنحاء الغرفة، إلي أن استقرت نظراته علي زجاجات الشراب المرصوصة علي رَفٍّ جانبيٍ، وعندئذ قلت له:

ـ لا بأس في أن تتناول كأساً من الشراب ليدفئك قبل أن تنصرف!

وجلس الرجل علي المقعد مرَّة ثانية، وقال:

ـ شكرا لك..أُريد كأساً من الويسكي..

وصبّبت له كأساً..وصبّبت لنفسي كأساً آخر، ثمَّ قلتُ له بلا اهتمام:

ـ آه! كيف كنت تعيش في كُلِّ تلك السنوات الماضية ؟

فقال بهدوءٍ:

ـ لقد عشتُ حياةً ناجحةً في «نيو ساوث ويلز» New South Wales، في «أستراليا» Australia، وأمتلك الآن مزرعة وقطعاناً من الغنم..ولكن هل لي أن أسألك بدوري عن مجري حياتك منذ أن تقابلنا ونحن نرتعش من البرد في مستنقعات «كنت» ؟

واضطررت مُكرهاً أن أعطيه مُلخصاً وجيزاً عن مجري حياتي، وبعد أن انتهيت من ذلك، قال الرَّجل بهدوءٍ:

ـ أستطيع أن أُخمن مقدار دخلك منذ أن بلغت سن الرشد إنَّه مبلغ يُقدر خمسمئة جنيه سنوياً..أليس كذلك ؟

كان يوجه نظرة ثابتة نحو عينيَّ، ورَغْم صوته الهادئ، كنتُ أحس أن كلماته تدوي كالصرخات داخل كياني..وأخذت أرتعد!

وقال الرَّجل مواصلاً حديثه:

ـ وبدأت أرتعد خوفًا وأستطيع أن أخمن أيضاً أنَّك تحصل علي هذا الدخل من خلال رجل أعمال يعمل بالوساطة..رجل يبدأ اسمه بحرف «ج» ..أليس كذلك ؟

ولم أستطع الكلام، وشعرت كأني سأختنق، واستندت علي طرف المائدة. وواصل الرَّجل حديثه:

ـ في الواقع أن اسم الرجل الوساطة هو «جاجرز»، واسم كاتبه هو «وميك» .. أليس كذلك ؟

وأخذت رأسي تلف وتدور، وكدت أتهاوي وأنا أحاول الجلوس علي الأريكة، وساعدني الرَّجل علي الجلوس، وركع علي إحدى ركبتيه أمامي، وهو يقول:

ـ نعم يا «بيب» يا بُني العزيز..لقد جعلت منك جنتلمان حقيقياً..أنا الذي فعلت كُلّ هذا من أجلك..وعندما بدأت أكسب الملاليم، أقسمت أن يذهب كُلّ ما أكسبه لك..ثمَّ عندما بدأت أكسب الجنيهات، أقسمت مرَّة أخري أن أحرم نفسي من لذات الحياة لأوفر لك ما يُساعدك علي أن تستمتع بحياةٍ رغدةٍ سعيدةٍ..

وبدأت أرتعد خوفا منه، كما لو كان قد تحوَّل إلي وحشٍ مفترسٍ، ولكنه واصل حديثه بنفس الهدوء والفرح:

ـ إنَّك أعز عليَّ من ابن حقيقي يا «بيب» ..وكم من الليالي التي كنت أقضيها وأنا أُفكِّرا فيك في وحدتي البعيدة..وعندما كنت أتناول طعامي في تلك العزلة بعد الانتهاء من عملي في رعي الغنم، كنت أتخيَّل وجهك الصغير عندما كنت طفلاً وأنت تنظر إليَّ عندما كنت

أتناول الطعام والشراب الذي أحضرته إليَّ في المستنقعات..ولذلك أقسمت مرَّة أخري علي أن اجعل منك جنتلمان.. وها أنذا قد نجحت في ذلك..

«بيب» يشعر بالخيبة والمرارة

وأخذ ينظر بفرحٍ إلي السجاجيد الشرقية، وإلي اللَّوحات الجميلة المُعلَّقة علي الحائط، وإلي ملابسي الأنيقة، وإلي جوهرة الياقوت في خاتم أصبعي، وإلي الكتب المرصوصة علي الرفوف.. ولم أنطق بكلمةٍ واحدةٍ.. ربما لأني كنت عاجزاً عن الكلام. وواصل الرَّجل حديثه:

ـ لقد حققت بعض النجاح والشهرة في «نيو ساوث ويلز» رَغْم أنَّ بعض الناس كانوا يُعايرونني بالماضي حين كنت سجيناً، ولكني لم أكن أهتم بذلك..كنت علي يقينٍ بأني أمتلك جنتلمان عظيماً مثلك.. أعظم وأرقي من أيّ واحد فيهم، وكنت أتحمَّل كُل شيء علي أمل واحد هو استطاعتي أن أعود في يومٍ ما لكي أراك وأُقابلك لأعرفك بنفسي..

ووسط إحساسه بالزهو والفخر، وهو يقول هذا الكلام لم يلحظ مدي الإحساس بالرَّهبة الذي أخذ يعصف بنفسي، ولا مدي البؤس والشقاء الذي كان يُمزق قلبي وأنا أنصت إلي حديثه! وأخيراً سألني وهو يتثاءب:

ـ والآن يا بُني العزيز أين يمكنني أن أنام..بعد أن قمت بالرحلة الطويلة التي تحيطها المخاطر ؟

واستعدت صوتي وقدرتي علي الكلام، وقلت مستسلماً:

ـ يمكنك أن تنام علي سرير زميلي الغائب..ولكن ماذا تقصد بالضبط بكلمة مخاطر ؟

فقال بهدوءٍ وبساطةٍ:

ـ إنَّ السلطات ستنفذ فيَّ حكم الإعدام شنقاً لو اكتشفت أني قد عدت إلي «لندن» !

وعلي الفور أسدلت جميع الستائر، وأدخلته إلي حجرة «هربرت»، وأنا أشفق عليه لمجازفته الجريئة واستعداده للتضحية بحياته لكي يراني..وأشفق أيضاً علي نفسي لأني لم أستطع أن أشعر نحوه بأيّ قدر من التعاطف!

وقبل أن أُغادر الغرفة سألته:

ـ وهل قمت وحدك بهذه المجازفة أم ساعدك فيها شخص آخر ؟

فقال مندهشاً:

ـ لا يا بُني العزيز..لقد قمت بها وحدي!

وهكذا تبدَّدت جميع أحلامي وتصوُّراتي السابقة في حكايتي مع «ستلا»، وهكذا تبيَّن لي أن خطة الآنسة «هافيشام» لزواجي من «ستلا» كانت وهماً مفجعاً، وأكذوبةً كبري أقنعت بها نفسي دون أساس أو سند..وهكذا تيقنت من حقيقة مركزي بالنسبة لـ«ستلا» ..لم أكن أكثر من مرافق مفيد لها..تلعب بعواطفي بقسوةٍ تعلَّمتها من تلك المرأة العجوز!

وظللت أتأمَّل النار الخابية في المدفأة، حتي ظهور نور الصباح، وأنا أشعر بمنتهي البؤس وخيبة الأمل!!

مأزق الرجل الذي منحه كل هذا الحنان

Trouble the man who granted all this tenderness

«آبيل ماجويتش» Abel Magwitch هو اسم السجين الهارب المُحسن الذي تبرَّع لي بكُلِّ هذه الأموال.وكان قد تعرَّف علي السيِّد «جاجرز» المُحامي حين كان هذا الأخير يتولي الدفاع عنه في قضيته، وقد بذل «جاجرز» في الدفاع المستميت عنه كُلّ جهد، حتي نجح في إنقاذ عنقه من حبل المشنقة، بشرطٍ واحدٍ هو أن يُهاجر من «إنجلترا» إلي الأبد ويعيش في «نيو ساوث ويلز» بأستراليا بقية حياته.

ولكن عودته إلي «إنجلترا» خلقت الكثير من المتاعب والمشاكل، وقد رأيت أن أحلّ هذه المشاكل واحدة وراء الأخري.بادئاً بإخطار صاحبة «خان بارنارد» بأنَّ هذا الرَّجل هو خالي، وقد حلّ ضيفاً عليَّ لعدة أيام.أمَّا بالنسبة لقرب عودة «هربرت» من رحلته، فقد كان من اللاَّزم أن أبحث عن سكن آخر مناسب لاختفاء «ماجويتش» .

وفي صباح اليوم التالي، تناول «ماجويتش» في إفطاره كمية كبيرة من الطعام باستمتاعٍ واضحٍ، ثمَّ جلس علي الأريكة وأشغل غليونه بعد أن حشاه بطباقٍ أسودٍ كريه الرائحة.وبعد أن دخن بضعة أنفاس، قال بارتياحٍ:

ـ «بيب» ..لابدّ أن تشتري لنفسك عربة وخيولاً تجرَّها، وأن تستأجر سائقاً خاصّاً يقودها لك.

وأخرج من جيوب معطفه حافظة جلدية كبيرة منتفخة بالنقود ووضعها أمامي علي المائدة، وهو يقول:

ـ إليك هذه النقود كُلَّها، وهناك نقود كثيرة غيرها ولك أن تنفقها فيما تراه، وكيفما تهوي وتُحبّ، إنَّ قمة سروري وفرحي أن أراك تنفق أموالك بالطريقة التي تعجبك وتروق إليك كـ «جنتلمان» .

فرفعت يدي مُعترضاً لأسكته، وأنا أقول له:

ـ ليس هذا هو ما يجب أن نتحدَّث فيه الآن! إنَّ علينا أوَّلاً أن نُدبِّر طريقة تجعلك آمناً طوال فترة بقائك هنا..ولكن أُريد أن أعرف الآن موعد رحيلك؟

فنظر إليَّ مندهشاً مذهولاً، وهو يقول:

ـ لماذا يا بُني العزيز ؟ لقد جئت لأبقي بصفةٍ مستمرةٍ ودائمةٍ.. يمكنني أن أتنكَّر، فسأصبغ شعري، وأضع علي عينيَّ نظارة طبية، وأرتدي ملابس أنيقة جديدة..وبهذه الطريقة لن يتعرَّف عليَّ أحد.

واقترحت عليه أن يتنكَّر في ملابس مزارع من الريف، لأنَّ هذا المظهر تحديداً يتناسب ولون بشرته التي لوحتها الشمس..فوافق.

ولكن قبل أن أذهب لأشتري هذه الملابس، عرجت علي مكتب السيِّد «جاجرز»، الذي ما إن رآني حتي تبادل النظرات مع كاتبه السيِّد «وميك»، ثمَّ هبّ واقفاً ليحذرني، قائلاً:

ـ قلّ ماذا تُريد بدون ذِكر أسماء ؟

ففهمت ما يقصده، وسألته بدوري:

ـ نعم يا سيِّد «جاجرز» لقد جاءني زائر من «نيو ساوث ويلز»، وهو يقول أنَّه المُحسن الذي وهبني كُلّ هذه النقود..فهل هذا صحيح ؟

ـ هذا صحيح بالفعل.

فقلتُ له يائساً:

ـ لقد كنتُ أظن أنَّ الآنسة «هافيشام»هي التي تُحسن إليَّ وترعاني، وقد شجعتني أنت علي هذا الظن الخاطئ!

فاعترض «جاجرز» علي كلامي، قائلاً:

ـ لا! لم أُشجعك أبداً علي ذلك.وربما كانت الآنسة «هافيشام» تُشجعك علي تصوُّر هذه الفكرة الخيالية كنوعٍ من التسلية تُرضي بها عقلها المريض!

..الآن فقط تيقنت دون أدني شكّ من أنَّ «آبيل ماجويتش» هو نفسه المُحسن الذي كان يهبني المال. فأسرعت إلي البيت واستأجرت له مسكناً مجاوراً لسكني، كما اشتريت بعض ملابس المزارعين ليتنكَّر فيها.

«بنتلي درامل زوج «ستلا» المرتقب

وفي تلك اللَّيلة نام علي مقعدٍ وهو في كامل ثيابه الجديدة، وقد أخذت أنظر إليه وأنا مضطرب القلب،

مُشتت الذهن.وخُيَّل إليَّ أن أفضل حلّ لهذه المشكلة أن أجري خارجاً من الغرفة، ومن البيت، ومن «لندن»، بل ومن «إنجلترا» كُلّها.

ولكن لم يكن أمامي سوي أن أنتظر عودة صديقي «هربرت» من رحلته الخارجية، لنتدبر الأمر سوياً، وينصحني بما أفعل.

علي أنَّ «ماجويتش» لم يسمح لي بأن أفشي سرّهُ لصديقي «هربرت»، قبل أن يراه ويتأكَّد بنفسه أنَّه محل ثقته.وبالفعل لم تمض نحو خمس دقائق علي حضور «هربرت» حتي أومأ لي «ماجويتش» برأسه موافقاً، ولكنَّه مع ذلك أحضر نسخة قديمة من الكتاب المقدس وطلب من «هربرت» أن يُقسم علي ألا يبوح لأحدٍ بأيٍّ من الأسرار التي سوف يسمعها.

وبعد أن عرف «هربرت» كُلّ شئ..خرج «ماجويتش» إلي مسكنه المجاور.وبقيت أنا وصديقي نتحدَّث في تلك الأمور حتي ما بعد منتصف اللَّيل.وشرحت له كُلّ الأفكار التي تدور في ذهني، إلي أن انتهيت إلي اتخاذ قرار حاسم:

ـ لن آخذ يا «هربرت» مليماً واحداً من «ماجويتش» بعد الآن. حتي بالرَغْم من كوني غارق في الديون..سأرفض نقوده لأنَّها مملوكة لشخصٍ مجرم!

فهز «هربرت» رأسه معترضاً، وقال:

ـ أنا أفهم وأُقدر حقيقة مشاعرك يا «بيب»، ولكنك إنْ فعلت ذلك فسوف تُدمِّر هذا الرَّجل تماماً..لقد عاش حياته جميعها من أجلك، وجمع أمواله كُلَّها لك..وإني أعتقد أنَّه علي أتم الاستعداد بأن يُضحي بحياته ويسلم نفسه للسلطات إذا رفضت أن تشتري العربة والخيول.

وفرت الدموع من عينيَّ، وقلت منفعلاً:

ـ لا يا «هربرت» لن تستمر علاقتي به، ولن أُنفق نقوده بعد الآن..كُلُّ ما أُريده وأتمناه هو أن يرحل من هنا ويتركني وشأني!

وهنا، قال «هربرت» :

ـ إذا كنت لا ترغب في تحمُّل مسؤولية القبض عليه وإعدامه فلابدّ أن تقنعه وتحثه علي مُغادرة «إنجلترا» .

فقلتُ له، وأنا في قمة اليأس:

ـ لن يقبل ذلك أبداً!

ـ إذاً لابدّ أن تُسافر معه.

فشعرت بالصَّدمة المروعة عندما فوجئت بهذا الرأي.

ولكن «هربرت» واصل حديثه:

ـ نعم ستسافر معه إلي الخارج وهناك تتركه في بلدٍ آمنٍ وتعود أنت إلي «إنجلترا» ..وسأدبر لك وظيفة لتعمل معي في شركة «كلاريكار» .

ورأيت أنَّ هذا هو الحلّ الأمثل.

وبينما كنتُ أُدبِّر هذه الترتيبات كُلِّها، وصلتني دعوة من «ستلا» للحضور إليها. ولما التقينا، حتي قالت لي بمنتهي البرود:

ـ أنا في طريقي إلي الزوَّاج في أقرب فرصة. وإني أُحذرك.. وأنت تعرف ما أقصده!

وعندما عرفت أن عريسها هو «بنتلي درامل» العنكبوت الكريه الذي يُثير اشمئزازي، اعترضت علي هذا الاختيار غير الموفق بكُلِّ قوَّةٍ.

ولكن «ستلا» لم تعبأ باعتراضي تماماً، بل هزت كتفيها باستخفافٍ ولامبالاةٍ، وقالت:

ـ أنا صفقة جيدة. فهو غني واسع الثراء، وأنا قرَّرت أن أتزوجه.

❊ ❊ ❊ ❊

لغز المرأة القاتلة!

Women's deadly puzzle

بعد أن انتهي هذا الحديث المؤلم مع «ستلا» أخذت أتجوَّل بلا هدفٍ في شوارع «لندن» شقياً تعساً يُمزق اليأس قلبي.

وبالرَغْم من أنَّ حالتي المالية لم تعد تسمح لي بمواصلة التفكير في احتمال زواجي من «ستلا»، إلَّا أن إحساسي بالمرارة قد فاق كُلّ احتمال، لأنَّ اختيارها وقع علي «درامل» ذلك العنكبوت الكريه بالذات.وحتى عندما قالت لي «ستلا»، وهي تبتسم ابتسامتها الساخرة:

ـ إياك أن تظن أني سأجعل منه زواجاً سعيداً.

فإنَّ هذا القول لم يسعدني أو يواسيني.

وعدتُ إلي بيتي في وقتٍ متأخرٍ، وما إن فتحت الباب حتي فوجئت بشخصٍ غريبٍ يهبّ واقفاً من المقعد المجاور للمدفأة، وفي لحظة تبيَّنت أنَّه السيِّد «وميك» الذي سرعان ما وضع أصبعه أمام شفتيه طالباً مني أن ألزم الصّمت. وأشار إليَّ أن أقترب منه.ثمَّ قال، هامساً:

ـ معذرةً يا «بيب» لهذه المفاجأة، لقد أعطاني السيِّد «هربرت» المفتاح لانتظرك هنا، لأني أود أن أقول لك بعض الأخبار المهمة، ولكن بدون ذِكر أسماء كما تعرف.

أسرعت نبضات قلبي، وسألت هامساً بدوري:

ـ هل حدث مكروه ؟

فقال «وميك» :

ـ نعم..ولا..

فخلعت قبعتي ومعطفي علي الفور، وجلست بجوار «وميك» الذي بدأ حديثه بصوتٍ خفيضٍ:

ـ لعلك لاحظت أن السيِّد «جاجرز» المُحامي له زبائن وعملاء من مختلف أنواع الناس، ولكن أغلبهم من الطبقات الرفيعة، وبطبيعة الحال فإنَّ شخصاً مثله تأتيه أخبار لا أستطيع أنا وأنت الحصول عليها، لأنَّ أغلبها يدور في المجتمعات الوضيعة، أو التي تتردَّد بين أصدقائه من المُجرمين.

أوشكت أن أعترض علي هذا التعليق القاسي، ولكني آثرت الصّمت لاستمع إلي بقية الحديث.

وواصل السيِّد «وميك» حديثه:

ـ واحدٌ من هؤلاء الناس الذين يتردَّدون علي المجتمعات الوضيعة سمع إشاعة مُعيَّنة قام بإبلاغها إلي السيِّد «جاجرز»، إشاعةٌ ينشرها شخص اسمه «كومبايسون» Compeyson مفادها أن في «لندن»

الآن زائر جاء من «نيو ساوث ويلز» ومن المتوقع أن يصل هذا الخبر إلي السلطات في أيّة لحظة.

شحب لون وجهي علي الفور، وشعرت بقشعريرة البرد رَغْم قربي من نار المدفأة، وقلتُ وأنا أكاد أبكي:

ـ لا يمكن..لا يمكن أن يُقبض عليه، لابدّ من عمل شئ!

فقال «وميك» :

ـ هذا صحيحٌ، لذلك فقد اتفقنا أنا والسيِّد «جاجرز» علي أن أقوم أنا والسيِّد «هربرت» بنقل هذا الزائر من سكنه المجاور لك إلي سكنٍ آخر في بيتٍ يطل علي النهر.وقد تصوَّر السيِّد «جاجرز» أنَّك ربما تكون موضوعاً تحت المراقبة.أو أن شخصاً ما قد يتتبع خطواتك حتي يمكنهم التعرُّف علي مكان هذا الزائر، ولذلك فقد تمّ نقل الزائر في غيبتك، وهذا أفضل..ولكن لابدّ من اتخاذ بعض الترتيبات.

فقلتُ:

ـ أعرف ذلك، لابدّ من نقله إلي خارج «لندن» ..لقد فكَّرت في ذلك، بل وسأسافر معه إلي الخارج إذا لم يقبل أن يُسافر وحده.

فقال «وميك» :

ـ عظيمٌ، ولكن هذه الترتيبات لابدّ أن تتم بأقصى سرعة ممكنة، ولابدّ أيضاً من وضع الخطط المُحكمة لكي يتم التنفيذ بدقةٍ وأمانٍ..

إنَّ السيِّد «جاجرز» يُصر علي ذلك وسيظلّ علي اتصالٍ بك للتنفيذ في الوقت المناسب.وهناك شئ آخر علي درجةٍ كبيرةٍ من الأهمية يجب ألا تذكر اسم «كومبايسون» أمام الزائر بأي شكلٍ من الأشكال، لأنَّ الزائر لو عرف أن «كومبايسون» هذا موجود في «لندن» فسوف يتعقبه ولن يتركه إلّا بعد أن يقتله.

وبعد انصراف «وميك» جلست أمام المدفأة أتأمَّل شعلات اللَّهب وأتخيَّل الكيفية التي يجب أن يتم بها تهريب «ماجويتش» إلي الخارج، واختلطت في ذهني الأفكار والخطط.

وقطع حبل أفكاري وصول «هربرت» الذي جاء تواً من عند حبيبته «كلارا»، التي تعيش مع أبيها المريض المتقاعد في بيتٍ يطل علي النهر، حيث يجلس الأب العجوز أمام النافذة ليُشاهد السفن القادمة والسفن المُغادرة.

وهنا طرأت في ذهني فكرة توهَّجت مثل البرق، فقلت لـ «هربرت»:

ـ هذا هو البيت المناسب، منه نستطيع أن نركب قارباً يوصلني أنا و «ماجويتش» لأيّة سفينة مُسافرة إلي الخارج، وهناك بعض قباطنة السفن علي استعدادٍ لعمل أي شيءٍ مُقابل الحصول علي النقود، ودون أن يسألوا أي سؤال.

وتحمس «هربرت» لفكرتي علي الفور، وأضاف فكرة جديدة، فقال:

ـ إذاً يجب أن نشتري قارباً نضعه قرب البيت، ويجب أن نقوم أنا وأنت بالتجديف لنتجوَّل في النهر كُلّ يوم حتي يعتاد الناس علي رؤيتنا في هذا القارب إلي أن يجئ اليوم المُحدَّد للهرب، فنركب القارب كالمعتاد وتتم العملية دون أن نلفت نظر أحد.

وفي اليوم التالي اشتريت قارباً وبدأنا التمرُّن علي التجديف بطريقةٍ صحيحةٍ.في البداية لم نستطع أن نواصل التجديف إلي وقتٍ طويلٍ عبر النهر، فقد كانت عضلاتنا في حاجةٍ إلي التليين حتى نعتاد عملية جذب المجداف.

وأعدت مع «هربرت» حافظة النقود التي تركها «ماجويتش» في بيتي، وطلبت منه تسليمها إليه، ثمَّ قرَّرت بعد ذلك أن أزور «ماجويتش» في مقره الجديد، فسلكت طرقاً جانبيةً كثيرةً لتضليل أي شخص يتعقبني.

وعندما وصلت إلي البيت رأيت «كلارا» لأوَّل مرَّة.كانت فتاة جميلة، ذات وجه مستدير رقيق التقاطيع.وهنأت «هربرت» من كُلّ قلبي علي حُسن اختياره، فأحس بسعادةٍ غامرةٍ وهو يسمع ثنائي علي حبيبته.

أمَّا «ماجويتش» فلم يتقبَّل بسهولةٍ فكرة نقله من مسكنه السابق وإسكانه في هذا البيت الذي يطل علي النهر، وكذلك فقد أقنعته بصعوبةٍ بأن الوقت غير مناسب لشراء العربة والخيول حتي لا نلفت أنظار الناس، ولكنه أعترض بشدةٍ علي فكرة تهريبه إلي خارج «لندن»

إلي أن أفهمته بأني سأكون في صحبته في تلك الرحلة، وعندئذ فقط استسلم ووافق علي كُلّ شئ.

وطوال وقت الزيارة، كان «ماجويتش» يمسك يديّ بكلتا يديه وبحنانٍ بالغٍ.ولم يتركها إلَّا بعد انتهاء الزيارة وتأُهبي للانصراف، وبطبيعة الحال لم أُعبِّر له عن نيتي في تركه في أي مكانٍ آمنٍ خارج «إنجلترا»، والعودة بعد ذلك وحدي.

وساءت حالتي المالية إلي أقصي حدٍّ، فاضطررت عندئذ إلي بيع بعض مجوهراتي، ومع ذلك فإنَّ ثمن البيع لم يكن كافياً للوفاء بجميع التزاماتي، ولذلك فقد قرَّرت أن أتخذ خطوة جريئة، وإن كنت لا آمل كثيراً في نجاحها.قرَّرت اللجوء إلي الآنسة «هافيشام» لإقناعها بدفع الحصَّة المتبقية المنصوص عليها في العقد الذي أبرمته مع «كلاريكار» لصالح «هربرت» .

وقبل أن أذهب إلي محطة عربات السفر، عرجت إلي مكتب السيِّد «جاجرز» لأطلعه علي تلك الخطة التي دبرتها لتهريب «ماجويتش»، فوافق عليها، ولكنه أضاف مُحاولاً طمأنتي بعض الشيء:

ـ لا تكن قلِقاً إلي هذا الحد، اطمئن فإنَّ خير مكان للاختباء هو مدينة كبيرة واسعة مثل «لندن» .

وما أن أوشك حديثي مع السيِّد «جاجرز» علي الانتهاء، حتي دخلت الخادمة «موللي» وهي تحمل صينية عليها غذاء ساخن ووضعتها علي

مائدةٍ صغيرةٍ، وقد لاحظت أن «موللي» كانت تخفض رأسها وتنظر دائماً إلي الأرض.

ولكن عندما نهضت من مقعدي متأهباً للانصراف، اصطدمت يدي بحافة الصينية فاهتزت وسالت بعض الشوربة علي مفرش المائدة، فرفعت «موللي» رأسها ونظرت إليَّ بغضبٍ، ورغم أن تلك النظرة لم تستمر أكثر من ثانية واحدة، إلَّا أنَّني قد صُعقت، فقد كان هناك شبه تام بين نظرات عينيها الغاضبة ونظرات عيني «ستلا» حين تغضب.نفس الأنف، نفس الخدين، كُلّ ملامحها مطابقة تماماً لملامح «ستلا» !

وقبل انصرافي من مكتب السيِّد «جاجرز»، قابلت السيِّد «وميك» في المكتب الخارجي، فانتحيت به جانباً، وسألته:

ـ مَنْ هي «موللي» ؟

فقال هامساً:

ـ قاتلةٌ..إنَّها قاتلةٌ كان السيِّد «جاجرز» يتولي الدفاع عنها وحصل لها علي حكم بالبراءة.كانت غيرتها الشديدة علي زوجها هي السبب في الجريمة التي ارتكبتها..وقيل أيضاً أنَّها قد قتلت طفلتها!

نار الندم

The fire of remorse

وبينما كانت عربة السفر تقطع الطريق إلي بيت الآنسة «هافيشام» كنت أُفكِّر بعمقٍ في القصَّة التي ائتمني عليها «وميك»، فالخادمة «موللي»تنتمي من بعيدٍ لأصلٍ غجري لذلك تجري في عروقها بعض الدّماء الحارة.وعندما تصوَّرت أن زوجها يخونها مع امرأة أخري خنقت تلك المرأة علي الفور، ويُقال إنَّها لكي تنتقم من زوجها فإنَّها قامت بقتل ابنتها منه.ولكن هذا غير صحيح فما زالت أبنتها تعيش حيّة، إنَّها «ستلا» بنفسها، إنَّ الشبه تام بين عينيّ «موللي»، وعينيّ «ستلا»، إذاً هي أُمّ «ستلا» لا شك في ذلك.ومن المحتمل أنَّها وضعت نفسها في خدمة السيِّد «جاجرز»طوال هذا الزمن لأنَّه أنقذ أبنتها من الفقر والضياع.

وعندما قابلت الآنسة «هافيشام» لاحظت أنَّها أصبحت أكثر عجزاً وضعفاً من ذي قبل.ومع ذلك فقد أنصتت بهدوءٍ وأنا أشرح لها المُساعدة التي قدَّمتها سرّاً لمعاونة«هربرت»علي شق طريقه في الحياة، وسوء حالتي المالية التي لا تسمح لي الآن بتسديد الحصَّة المتبقية والتي حلّ موعدها طبقاً للعقد.

وأخبرتها بأني في حاجةٍ إلي تسعمئة جنيه حتي أستطيع الوفاء بهذا الالتزام. ظلت الآنسة «هافيشام» تنظر في نار المدفأة وهي تستمع إلي هذا الطلب، ثمَّ قالت، بصوتٍ حالمٍ وكأنَّه يأتي من بعيدٍ:

«بيب» في لقائه الأخير من الآنسة «هافيشام»

ـ «هربرت» يستحق العون، إنَّ أباه «ماثيو بوكيت» قدَّم إليَّ في يومٍ ما نصيحة غالية، ولكن للأسف لم آخذ بها، ففقدت سعادتي وعشت حياة تعسة شقية.ليتني استمعت إلي تلك النصيحة الغالية!

ثمَّ استدارت نحوي، وقالت بحدةٍ:

ـ إذا أعطيتك هذه النقود فهل تعدني بأن يظلّ هذا السرّ خافياً علي كُلّ من «هربرت» وأبيه ؟

فوافقت، وأعطيتها وعداً بذلك، فكتبت خطاباً إلي السيِّد «جاجرز» ليعطيني هذه النقود من حسابها، فأخذت الخطاب وشكرتها علي كُلّ شئ.

وعندما هممت بالانصراف، نادتني بصوتٍ مرتعشٍ، وهي تقول:

ـ «بيب» هل تري كم أنا وحيدة الآن ؟ هل تري كيف هجرتني «ستلا» ؟

فأجبت بهدوءٍ:

ـ كان لا يمكن أن ينتهي الأمر بغير هذه الطريقة.

وكنت قد امتنعت عن قراءة الصحف في الفترة الماضية، حتي لا أُصدم بقراءة أي خبر عن موعد زفاف «ستلا» .ومع ذلك فقد سألت الآنسة «هافيشام» متردِّداً:

ـ هل تمّ الزواج ؟

فأومأت برأسها، وقالت بحسرةٍ:

ـ نعم يا «بيب» .

وفي الحال تبدي الألم والأسى في ملامح وجهي، وأحسست بأن قلبي يتمزق في صدري.ومع ذلك فقد لاحظت أن الآنسة «هافيشام»أخذت تلهث وتتنهد، وسقطت عصاها من يدها، وقالت بصوتٍ يرتعش ألماً:

ـ أري في وجهك الآن يا «بيب» نفس مشاعر الألم التي تبدت في ملامح وجهي منذ سنين طويلة، في السَّاعة التاسعة إلَّا عشرين دقيقة!

وخبأت وجهي بين يديَّ، حتي أستعيد رباطة جأشي.وظلت الآنسة «هافيشام»تنوح وتبكي بحرقةٍ، وتهز رأسها بحركةٍ دائبةٍ يمنة ويسرة، وتقول والندم يعصر قلبها:

ـ ما هذا الذي فعلت ؟ ما هذا الذي فعلت ؟

الآنسة «هافيشام» تمنح «بيب» رسالتها إلي المحامي

وأوشكت أن أخبرها أنَّها عبثت بحياتي وحطمتني، ولكني امتنعت لأنَّ ذلك لا يعدو أن يكون نصف الحقيقة.أمَّا النصف الآخر فيتمثَّل في الأخطاء الجسيمة التي ارتكبتها بنفسي، وفي الأحلام الغبية التي كانت تدور في خيالي، وفي الطموحات السخيفة التي كنت أتطلع إليها، وفي الآمال العديدة الحمقاء التي كنت أُطلق عليها الآمال العظيمة.

ولكنها مدّت إليَّ يدها المرتعشتين، وقالت متوسلة والدموع تطفر من عينيها:

ـ سامحني يا «بيب» ..أرجوك.. سامحني.

وأمسكت بيدها، وقلت:

ـ لقد سامحتكِ وغفرت لكِ.

فقالت وهي تضغط علي يديّ راضية:

ـ لم أكن أضمر شراً منذ البداية.كنت أُريد فقط أن أُهيئ لـ «ستلا» مستقبلاً سعيداً، لا تُعاني ما عانيته أنا.ولكنها كُلّما كانت تكبر كانت تزداد جمالاً.وكنت أثني علي جمالها باستمرارٍ، وأعطها المجوهرات

لتتزين بها وتزداد تألُّقاً، وكنتُ احذرها دائماً من الوقوع في الحُبِّ، حتي أصبح قلبها جامداً كالثلج.

وسحبتُ مقعداً وجلست جوارها، وسألتها بهدوءٍ:

ـ مَنْ هي «ستلا» في الحقيقة ؟ ابنة مَنْ هي ؟

ـ لا أدري ؟ كانت مُجرَّد فكرة عابرة طرأت في ذهني يوماً ما.قلت لنفسي لماذا لا أتبني طفلة صغيرة لأمنحها حُبّي وأُهيئ لها مستقبلاً لا تلقي فيه مصيري، وطلبت من السيِّد «جاجرز» أن يبحث لي عن طفلة، فوعدني بأن يحضر إليَّ طفلة يتيمة، وفي يومٍ ما جاء ومعه الطفلة التي وعد بها.كانت طفلة صغيرة لا تتجاوز العامين فتبنيتها وأطلقت عليه اسم «ستلا» .

ثمَّ سكتت طويلاً وأغمضت عينيها وغلبها النُعاس، ودخلت في إغفاءة نوم خفيفة، وهي جالسة علي مقعدها أمام المدفأة.فسحبت نفسي بهدوءٍ وخرجت من الحجرة.وهبطت درجات السُّلَّم وتجوَّلت قليلاً عبر الممرَّات والردهات والحجرات لإحساسي بأني قد أُشاهد هذا البيت لآخر مرَّة في حياتي.

وفجأةً دوت في أذني صرخة مُلتاعة عالية، فجريت نحو مصدرها وصعدت درجات السُّلَّم بسرعةٍ فرأيت حريقاً قد نشب في حجرة الآنسة «هافيشام»التي اندفعت نحوي والنار ممسكة بطرحتها وثياب زفافها، فخلعت معطفي علي الفور ولففته حولها لأطفئ النار المشتعلة

بجسدها والتي بدأت في الإمساك بشعر رأسها.وكانت تُردِّد في لوعةٍ وحزنٍ:

ـ قل لها لقد سامحتها..أخبرها بأني قد غفرت لها.

وجاء الخدم وأخمدوا الحريق، وأرسلوا في طلب الطبيب الذي جاء عاجلاً وفحص الآنسة «هافيشام»، فوجدها ما زالت حيّة ولكنها فاقدة وعيها.

وبعد أن أسعفني الطبيب وضمَّد الحروق الشديدة التي لحقت بيدي، سمح لي بالانصراف وطلب أن أواصل العناية بتلك الجروح حتي تلتئم.وفي اليوم التالي عدت إلي «لندن» .

❊ ❊ ❊ ❊

الأسرار بدأت تتكشف الواحدة تلو الأخرى
Secrets began to unfold one after the other

كنتُ ما زلت أُعاني الصَّدمة الشديدة بعد أن وصلت إلي بيتي في «لندن». وقام «هربرت» علي الفور بإعادة ربط جروحي بأربطةٍ نظيفةٍ. وكنت قادراً علي تحريك أصابع يدي اليمني برغم الأربطة.أمَّا يدي اليسري فقد كانت إصابتها بالغة.كذلك فقد أمر الطبيب بأن تُربط بعنايةٍ وأُعلقها علي صدري برباطٍ يتدلي من عنقي.

بالرغم من آلامي فقد كان عليَّ أن أقوم ببعض المهمات العاجلة، ولكني أُصبت بالحمى وارتفعت درجة حرارتي، ولذلك فقد أصر «هربرت» أن يقوم ببعض هذه المهام نيابة عني، فقام بإبلاغ والده وبقية أقارب الآنسة «هافيشام»بما حدث لها، كما كتب رسالة إلي «ستلا» التي كانت آنئذ في باريس، ليبلغها بالحادث، وذلك بعد أن عرف عنوانها عن طريق السيِّد «جاجرز» .

وكانت هناك مهام أخري لابدّ أن أقوم بها بنفسي، لذلك فما أن استعدت بعض قوايّ حتي ذهبت إلي مقابلة السيِّد «جاجرز» وأطلعته علي الرسالة التي حرَّرتها الآنسة «هافيشام»، فحرَّر علي الفور شيكاً بمبلغ تسعمئة جنيه لصالح «كلاريكار»، وأمر باستدعائه لمقابلتي في المكتب.وبعد أن حضر واستلم مني الحصَّة المتبقية من العقد الذي أبرمته معه وعدني السيِّد «كلاريكار» بأن «هربرت» سيصبح علي الفور شريكاً كاملاً بالشركة، ولكنه قال مشترطاً:

ـ إنَّ علي «هربرت» أن يُسافر إلي الشرق لينشئ ويُدير أهم فروعنا الخارجية، لأنَّ أعمالنا الملاحية قد ازدهرت واتسع نطاقها.

وبعد أن انصرف «كلاريكار» انتحي بي السيِّد «جاجرز» جانباً، وقال هامساً:

ـ بدون ذكر أسماء، لقد حان الوقت الآن للزائر من «نيو ساوث ويلز» لكي يُغادر «لندن» ويرحل بعيداً، لأنَّ السلطات أوشكت أن تعرف مكانه.

وما أن وصلت إلي البيت حتي أبلغت «هربرت» بما قاله السيِّد «جاجرز»، ونظرنا نحن الاثنان إلي الأربطة الملفوفة حول يدي.. وشعرنا باليأس، فأنا لا أستطيع الآن أن أمسك بمجداف القارب، أو استخدامه.

ولكن «هربرت» قال، وهو يقترح حلاً للمشكلة:

ـ علينا أن نطلب المعونة من «ستارتوب» .

وكان «ستارتوب» هو ثالث الطلاب الذين كانوا يتعلَّمون لديّ والد «هربرت» هو، وأنا، والعنكبوت الكريه «درامل»، ولكن «ستارتوب» كان صديقاً أميناً يمكن الاعتماد عليه والثقة فيه.وقد وافق علي ما طلبناه منه بلا ترددٍ.

وبحذرٍ شديدٍ وبعد التأكُّد من أن أحداً لا يتتبعنا قمنا بزيارة «ماجويتش» لإخباره بأنَّ خطة الهروب أصبحت علي وشك التنفيذ وأنَّ عليه أنْ يستعد،وقد صُدم «ماجويتش» حين راي الأربطة حول

يدي، وأخذ يهتم بجروحي وآلامي أكثر من اهتمامه بأيّة تفاصيل تتعلَّق بخطة الهروب.وقال لي مواسياً:

ـ آه يا بُني العزيز..إني لا أهتم إلَّا بمصلحتك وحدها، أنت أعز عندي من ابن حقيقي خرج من صلبي، بل أنت أعز من ابنتي التي فقدتها حين كانت طفلة!

فقاطعته علي الفور:

ـ ولكنك لم تُحدثني من قبل بأنَّك قد أنجبت طفلة..أين هي الآن ؟

تنهد بعمقٍ واسترخي إلي مقعده، وقال:

ـ إنَّها قصَّة رهيبة، ولكن ما دمت أنت و «هربرت» تريدان أن تعرفا كُلّ شئ عني فلا بأس أن أحكيها لكما..ولكن اسمحا لي أوَّلاً بأن أشعل غليوني..

وعبأ غليونه بالطباق الأسود كريه الرائحة الذي كان يفضله، وبدأ يحكي:

ـ لقد نشأت دون أن أعرف لنفسي أبوين..كنت أعرف فقط أني عشت أغلب حياتي في السجون ما أن أخرج منها حتي أعود إليها، وفي وقتٍ ما منذ زمنٍ بعيدٍ تزوَّجت من فتاةٍ غجريةٍ صغيرةٍ، في الحقيقة كانت نصف غجرية، وأنجبت طفلة صغيرة، ولكن زوجتي هذه كانت حادة الطباع فخنقت إحدى النساء بعد أن تأكَّدت من أني كنت معجباً بها..

وتوقف برهة عن الكلام، وبدا كما لو كان يتخيَّل هاتين المرأتين اللتين كانتا تتنافسان علي حُبّه منذ سنوات طويلة، ثمَّ استعاد ذهنه وواصل حديثه:

ـ ..لقد غضبت مني زوجتي أشدّ الغضب وهددتني بأنَّها سوف تقتل طفلنا انتقاماً مني، ثمَّ اختفت هي والطفلة قبل أن أفعل أي شيءٍ، وعلمت فيما بعد بالقبض عليها وتقديمها إلي المحاكمة بتهمة قتل المرأة التي نافستها في حُبّي..وكان السيِّد «جاجرز» هو المحامي الذي دافع عنها حتي حصل لها علي حكم البراءة.وكانت هذه هي المرَّة الأوَّلي التي أسمع فيها اسمه..ياله من محام بارع هذا الرجل.وكان عليَّ أن اختفي عن الأنظار حتي لا أضطر إليَّ الشهادة بأنَّ زوجتي قد قتلت أيضاً طفلتنا الصغيرة، وهي شهادة كان يستحيل معها أن يحصل السيِّد «جاجرز» علي حكم البراءة..والآن يا «بيب» هل عرفت لماذا اعتبرك الابن الوحيد لي ؟

ولحُسن الحظ فإنَّ جروحي كانت قد جعلت وجهي شاحباً لدرجة لم يظهر معها أثر الشحوب الجديد الذي نجم عن سماعي هذه القصَّة الرهيبة التي زلزلت أعماقي، وجعلتني غير قادر علي النطق بكلمةٍ واحدةٍ.

وأعاد «ماجويتش» إشعال غليونه من جديدٍ، وقال مواصلاً حديثه:

ـ ..ومع ذلك وبعد كُلّ هذه السنين فما عدت أحمل كراهية تجاه زوجتي، أو أي شخص آخر..ولكني أكره من صميم قلبي شخصاً واحداً فقط، هو نفس الشخص الذي رأيتني يا بُني العزيز وأنا أضربه في حفرة الطين بمستنقعات «كنت»، حين رأيتني لأوَّل مرَّة..

قال ذلك وهو يضغط علي ركبتي ليُذكِّرني بهذا الموقف، فاضطررت للابتسام موافقاً، رغم أن رأسي أوشكت أن تنفجر بما يدور فيها من أفكارٍ، وواصل «ماجويتش» حديثه:

ـ ..لقد استغلني هذا الرَّجل أسوأ استغلال، كان يتظاهر بأنَّه«جنتلمان»، وكان يضع خطط الجرائم ويطلب مني تنفيذها، وبهذه الطريقة يظلّ هو آمناً بينما أواجه أنا المخاطر والنتائج وحدي..ثمَّ استولي هذا الرَّجل علي معظم الأموال التي حصلنا عليها من جرائمنا.. وادعي أنَّه هو الذي خطط بعقله للحصول علي تلك الأموال، وأنَّه صاحب الفضل الأوَّل في ذلك، أمَّا جرأتي أو قوّة عضلاتي فلا أهمية لها.ويمكنه أن يستخدم أي شخص آخر بدلاً مني..وعندما قبض علينا معاً شهد ضدي في المحكمة، بل وقال أني كنت أُحرضه علي ارتكاب الجرائم، وقد صدقته المحكمة عندما قارنت بين مظهري الرث الذي يشي بالإجرام، ومظهره النظيف المتأنق..ولهذا السبب حكموا بسجني وأطلقوا سراحه فأقسمت أن أنتقم منه، وعندما خرجت من السجن سألت وبحثت عنه في كُلِّ مكانٍ، وأخبرتني زوجته أنَّه متفرغ لخداع إحدى النساء الثريات في منطقة «كنت»، فذهبت إلي هناك فوراً لأتعقبه..ولعلك تذكر يا «بيب» أنَّه كان في إمكاني أن أستعيد حريتي بعد أن كسرت قيدي الحديدي مستعيناً بالمبرد الذي أحضرته لي، ولكني أمسكت به في المستنقعات حتي لا أُمكنه من الهرب وأُعيده إلي السجن مرَّه أخري، إني لا أكره أحد في هذه الدنيا قدر كراهيتي لهذا الرَّجل الذي يُسميّ «كومبايسون»!!

وما إن سمع «هربرت» اسم «كومبايسون» حتي انتفض مندهشاً، ولكنَّه لزم الصَّمت، ولم يتكلم.

وبعد أن انتهت زيارتنا لـ «ماجويتش» وخرجنا إلي الشارع حتي بدأنا أنا و «هربرت» بالكلام في وقتٍ واحدٍ، ولكن لأنَّ صوتي كان أعلي من صوته فقد بدأت الكلام قبله، وأبلغته بالمعلومات التي حصلت عليها من «وميك» بخصوص قصَّة الخادمة «موللي»، وربطت بينها وبين القصَّة التي حكاها لنا «ماجويتش»، وقلت في النهاية:

ـ إذاً فإنَّ ماجويتش هو بعينه والد «ستلا»، ولكن ما الفائدة في إعلان ذلك ؟!

فوافقني «هربرت» علي هذا الاستنتاج، واقسمنا معاً علي أن نحتفظ بهذا السرّ لأنفسنا ولا نخبر به أحداً، ثمَّ قال «هربرت» :

ـ ولكن هذا الرجل الذي يسمي «كومبايسون» ..

فقاطعته علي الفور:

ـ إنَّه هنا في «لندن»، ولكن لا بدّ من إخفاء هذا الأمر عن «ماجويتش»، وهذا هو السبب في أني لم أشر إليك من قبل باسم «كومبايسون» بعد أن عرفته عن طريق السيِّد «وميك» .

وقال «هربرت» في النهاية:

ـ كنت أُريد أن أقول لك أن «كومبايسون» هذا، هو نفس الشخص الذي أحبته الآنسة «هافيشام» وكان سبباً في مأساتها!!

❊ ❊ ❊ ❊

هروب لم يُكتب له النجاح
Escape did not succeed

قرَّرنا تنفيذ خطة الهرب يوم الأربعاء، وفي يومي الاثنين والثلاثاء ذهبت مع «هربرت» إلي بعض الشركات الملاحية لمعرفة جداول إبحار السفن الأجنبية المتوجهة إلي الخارج يوم تنفيذ الخطة.

واتفقنا مع سفينةٍ مُسافرةٍ إلي «هامبورج» Hamburg بـ«ألمانيا» Germany.وشاهدنا تلك السفينة وهي راسية علي الرصيف حتي نحفظ شكلها، ونتعرَّف عليها بسهولةٍ عند تنفيذ الخطة.

وتتلخص الخطة التي رسمناها في قيامنا بالتجديف حتي نصل بقاربنا إلي بيت «كلارا»، وهناك ينتظرنا «ماجويتش»، وبمُجرَّد أن يرانا قادمين نحوه فعليه أن يهبط فوراً عبر الدرجات الحجرية المبنية علي الشاطئ حتي يصل إلي قاربنا ويركب معنا، وعندئذ نواصل التجديف حتي نصل إلي مكانٍ مناسبٍ لانتظار الباخرة المُتجهة إلي «هامبورج» لتلتقطني أنا، و «ماجويتش» إلي ظهرها.

وقد وضعنا الخطة علي أن يقوم كُلّ من «هربرت»، و«ستارتوب» بالتجديف، وأنْ أمسك أنا بدفة القارب، وبطبيعة الحال فإنَّنا لم نخبر «ستارتوب» بكُلِّ أبعاد القصَّة، وإنَّما أخبرناه فقط بأنَّنا نُريد أن نشركه

معنا في أحد أسرارنا البسيطة التي وجدنا أنفسنا مضطرين للاشتراك فيها.

وبينما كنت انهي إجراءات جوازات السفر بمكتب السيِّد «جاجرز»، تولي «هربرت» إبلاغ كُلّ من «ستارتوب» ، و «ماجويتش» بالاستعداد.

وفي حقيقة الأمر كنا أنا و «هربرت» في غاية الاضطراب، وكنا نشعر بأنَّنا موضوعان تحت المراقبة بالرغم من أنَّنا لم نر أحداً يراقبنا أو يتتبع خُطانا.

ويوم الأربعاء الموعود كان أحد أيام شهر مارس التي يختلط فيها حر الصيف ببرد الشتاء، ولذلك فقد ارتديت ملابس ثقيلة، وأخذت معي حقيبة متوسطة الحجم بها بعض أدوات الزينة، وبعض غيارات الملابس.

وفي تلك اللَّحظات لم أكن أدري ما هذا الذي أفعله، ولا إلي أين أنا ذاهب ؟ كنت لا أُفكِّر في أي شئ سوي توفير الأمان لـ «ماجويتش» .وقبل أن أُغادر شقتي ألقيت نظرة أخيرة علي الحجرات، فمَنْ يدري ربما لن أراها بعد ذلك أبداً.

وكان «ستارتوب» ينتظرنا في القارب، وبدأنا الإبحار في السَّاعة الثامنة والنصف صباحاً، وما هي إلَّا لحظات حتي أصبحنا جزءاً من الحركة النشيطة التي تدب علي سطح النهر، حيث توجد الكثير من الصنادل التي تحمل شحنات الفحم، والعديد من البواخر القادمة والمُغادرة، وقوارب صيد الأسماك، وقوارب أخري مماثلة لقاربنا

مملوءة بعديدٍ من الناس الذين يقصدون النزهة، أو يرغبون في ممارسة رياضة التجديف.

وكان علينا أن نجدف مع تيار المدّ حتي السَّاعة الثالثة عصراً، ثمَّ نستمر بعد ذلك في التجديف ضدّ التيار حتي موعد حلول الظلام، وعندئذ نكون قد وصلنا منطقة تقع بين مُقاطعة «كنت»، ومُقاطعة «أسكس» Essex، حيث يتسع مجري النهر، وتقلّ فيه الحركة، ثمَّ نقضي اللَّيل في إحدى الحانات النائية حتي صباح اليوم التالي، فنعود إلي القارب مرَّة أخري لننتظر الباخرة المتوجهة إلي «هامبورج» التي اتفقنا معها، والتي كان من المفروض أن تُغادر «لندن» في السَّاعة التاسعة تماماً من صباح يوم الخميس.

وعندما كنا نجدف في طريقتا إلي بيت «كلارا» رأينا «ماجويتش» وهو يهبط درجات السُّلّم الحجري متجهاً نحونا.كان يرتدي عباءة واسعة، ويحمل حقيبة سوداء من قماش التيل، وكان منظره يوحي بأنَّه أحد التجار الذين يعملون بالسفينة النهرية.وأمسك «هربرت» بيده ليُساعده في النزول إلي قاربنا.

وفي الحال وضع «ماجويتش» ذراعه حول كتفي، وقال:

ـ يا بُني العزيز المخلص، لقد تمّ كُلّ شئ علي نحوٍ طيبٍ..شكراً لك..شكراً لك.

فضغطت علي يده.وأخذتُ أتلفت بعصبيةٍ لأنظر هنا وهناك حتي أتأكَّد من عدم وجود أي أحد كان يُراقبه أو يتتبع خُطاه.

وبدا كُلّ شئ طبيعياً، وعلي هذا واصلنا التجديف، وأشعل «ماجويتش» غليونه، وكان أقلّ اضطراباً وأهدأنا أعصاباً.

وعندما أرخي الظلام سدوله رسونا بقاربنا قرب حانة فقيرة منعزلة تطل علي الشاطئ، وكان صاحب الحانة وزوجته يبدوان كما لو كانا من المتشردين، ومع ذلك فقد قدما إلينا عشاءً طيباً تناولناه علي مائدةٍ قرب المدفأة. وكان كُلّ من «هربرت»، و «ستارتوب» الذي عرف الآن كُلّ أسرار خطة الهرب، في غاية التَّعب والإرهاق لقيامهما بالتجديف طوال النهار، ولذلك سرعان ما غط كُلّ منهما في نومٍ عميقٍ.

لحظة القبض علي «ماجويتش»، و «بيب» يحاول إنقاذه

أمَّا أنا فقد نمت في الغرفة التي نام فيها «ماجويتش»، كنت حريصاً علي ألا يغيب عن نظري لحظة واحدة. ونمت نوماً متقطعاً رغم إحساسي بالتَّعب والإرهاق، واستيقظت فزعاً عدة مرَّات أثناء اللَّيل، وكان يُخيَّل إليَّ أني كنت أسمع أصوات رجال يتكلمون، وفي آخر مرَّة سمعت بالفعل صوت رجلين يتحدثان عند النهر، ففتحت النافذة بحذرٍ وطللت فرأيت رجلين يقومان بتفتيش قاربنا المربوط بالشاطئ. وعندما لم يسفر التفتيش عن شيءٍ انصرف الرَّجلان دون أن يلقيا أيّة نظرة علي الحانة. وخمَّنت أنَّ الرَّجلين من مُفتشي الجمارك.

وفي صباح اليوم التالي

نهضنا مبكرين وعدنا إلي القارب وجدفنا حتي وصلنا إلي منطقة مستترة بجانب الشاطئ، وهناك توقفنا لانتظار الباخرة المتوجهة إلي «هامبورج»، وفي السَّاعة الواحدة والنصف بعد الظهر لاح لنا دخان الباخرة وهي قادمة نحونا.

وفي الحال بدأنا أنا، و «ماجويتش» نستعد، وحمل كُلّ منا حقيبته، وسلمت علي «ستارتوب» ، ثمَّ علي «هربرت» حيث لاحظت أن عينيه مثل عينيَّ مغرورقتان بالدموع.

وبدأنا نجدف حتي نصل قرب الخط الذي تسير فيه الباخرة، وفي نفس الوقت بالضبط بدأ قارب آخر يتجه إلي نفس الاتجاه حتي اقترب تماماً من قاربنا.وعلي هذا القارب رأينا رجالاً يجدفون، ورجلاً يمسك بالدفة، ورجلاً آخر يجلس بجواره يلتحف بعباءةٍ واسعةٍ، ويصدر أوامره وتوجيهاته للرَّجل الذي يمسك بالدفة.

ثمَّ نادي علينا الرَّجل الذي يمسك بالدفة:

ـ معكم سجين مطرود من «إنجلترا»، ولا يجوز له العودة إليها، وأنا آمر «آبيل ماجويتش» بأن يُسلم نفسه بلا مقاومةٍ، وعليكم أن تساعدونا في اعتقاله والقبض عليه.

وهنا كان القارب الآخر قد سدّ الطريق تماماً أمام قاربنا ومنعنا من الحركة.ثمَّ امتدت الأيدي وأمسكت بقاربنا وسيطرت عليه تماماً، وقد

تسبَّب هذا الموقف في حدوث ارتباك علي ظهر الباخرة، حيث سمعنا أصواتاً تأمر بإيقاف ماكينات الباخرة، وقد توقفت الماكينات بالفعل، ولكن الباخرة مع ذلك ظلت تتقدَّم نحونا.

وفي هذه اللَّحظة انحني الرَّجل الذي كان يوجه الدفة نحو قاربنا، ومدّ يده وأمسك «ماجويتش» من كتفه، ولكن «ماجويتش» انحني بدوره ومدّ يده ونزع العباءة عن الرَّجل الذي كان يصدر الأوامر والتوجيهات..كان هو نفس السجين الهارب الثاني الذي قابلته في طفولتي في مستنقعات «كنت» .. كان «كومبايسون» بعينه!

وتبدي الفزع الشديد علي وجه «كومبايسون»، الذي تراجع إلي الخلف من شدّة الخوف، ولكن «ماجويتش» قفز من قاربنا إلي القارب الآخر لكي ينقض علي «كومبايسون»، ولكن هذه الحركة العنيفة المباغتة أدت إلي اهتزاز القاربين بشدّةٍ، وفي لحظةٍ انقلب قاربنا بمَنْ فيه.

وانتشلوني من الماء ورفعوني إلي القارب الآخر، ثمَّ انتشلوا «هربرت»، و «ستارتوب» ، ونظرت ملهوفاً لأطمئن علي «ماجويتش» فرأيته يسبح بضعفٍ شديدٍ ويُقاوم الغرق، فرفعه الرِّجال إلي قاربهم، وقاموا بتكتيف يديه وقدميه.

وهكذا..باءت خطة الهروب بفشلٍ ذريعٍ!!

المحاكمة، والوداع الأخير

Trial, and the last farewell

كان «ماجويتش» يتنفس بصعوبةٍ بسبب جرح خطير قد أصابه في صدره، وجرح آخر برأسه، وقد أُصيب بهما بعد أن صدمته الباخرة التي كنا ننوي الهرب علي ظهرها إلي «هامبورج» .

واحتضنتهُ بين ذراعيّ، وبأنفاسٍ لاهثةٍ متقطعةٍ أخذ يحكي لنا كيف هجم علي «كومبايسون» وألقاه في مياه النهر، وكيف تصارع الرَّجلان بعنفٍ إلي أن انتشلوه وحده دون أن يُعرف ماذا حدث لـ «كومبايسون» .

وظللنا ندور بالقارب في آخر منطقة شوهد فيها «كومبايسون» حيّاً، ولكن دون جدوى، فقد أختفي تماماً، ثمَّ ظهرت جثته علي الشاطئ فيما بعد.

وفي أثناء عودتنا بهذا القارب إلي «لندن» عرجنا إلي إحدى الحانات المُطلة علي النهر لاستراحةٍ قصيرةٍ، وطلبت من الضابط، وهو نفس الرَّجل الذي كان يُدير دفة القارب وأصدر لنا أمراً بالتوقف، بأن أشتري بعض الملابس لـ «ماجويتش» بدلاً من ملابسه المبتلة.فوافق الضابط بعد أن أفهمني أنَّ جميع مُتعلقات السجين بما فيها نقوده وملابسه المبتلة، لابدّ من تسليمها إلي السلطات في «لندن» .

ونظراً لعلمي بأنَّ مثل هذا القرار سيحطم قلب «ماجويتش»، لذلك فقد قرَّرت ألا أُبلغه به.وجلست بجواره صامتاً، وأمسكت بيده لعلي بذلك أُشجعه علي تحمُّل الألم.ولكنه ابتسم بحنانٍ بالغٍ، وقال:

ـ يا بُني العزيز..كنت أعرف تماماً أن عودتي إلي «إنجلترا» تُعتبر مغامرة غير مأمونة العواقب..ولكني كنت أُريد أن أراك، وقد رأيتك، وسعدت بك..ولهذا فإني راض ومقتنع بأنَّك أصبحت قادراً علي أن تعيش كـ«جنتلمان» بدوني.ولكن لا يجوز لإنسانٍ نبيلٍ مثلك أن تكون له علاقة بأمثالي..ولكني أرجوك أن تحضر إلي قاعة المحكمة، وتجلس في مكانٍ أستطيع أن أراك فيه..وثق أنَّني لا أُريد أكثر من ذلك..

بكيتُ من شدة التأثُّر، وقلت بإصرارٍ:

ـ لا يا «ماجويتش» لن أتخلي عنك ما داموا يسمحون لي بالتردُّد عليك لزيارتك، سأبقي دائماً إلي جانبك، وسأكون مخلصاً لك كما كنت دائماً مخلصاً لي..

وشعرت بأنَّ يده كانت ترتجف عندما كان يسمع كلامي هذا، وابتسم في رضا، ثمَّ نام.

لم تستغرق المُحاكمة فترة طويلة، فقد كانت القضية واضحة.وتولي السيِّد «جاجرز» الدفاع عنه، رغم أنَّه أبلغني بأنَّ الأمر ميئوس منه، ولا أمل فيه.وقدَّم «جاجرز» إلي المحكمة شهادةٍ تؤكِّد أنَّه قد تاب عن الإجرام منذ أن غادر «إنجلترا»، وأنَّه قد أصبح بالفعل شخصاً ناجحاً محترماً في موطنه الجديد «نيو ساوث ويلز» في «أستراليا» .

ولكن ما فائدة كُلّ ذلك أمام الحقيقة الدامغة وهي أن علي «ماجويتش» أن يواجه عقوبة الإعدام شنقاً إذا عاد إلي «إنجلترا» .

ولأنَّ الجروح التي لحقت بـ «ماجويتش» كانت بالغة وخطيرةٍ، وخصوصاً بعد تلوثها بماء النهر فقد ساءت صحَّته وتدهورت قوّاه. ومع ذلك فلم يكتسب عطف المُحلفين الذين لم يستطيعوا أن يفعلوا شيئاً أمام صرامة القانون..لذلك فقد قرَّروا أنَّه مذنب!

ولم يكن أمام القاضي سوي أن يصدر الحكم بالإعدام، ولم يكن أمام «ماجويتش» الضحية سوي أن يقول للقاضي:

ـ سيِّدي إنَّ الأعمار بيد الله وحده، وليس أمامي سوي أن أخضع لحكمك!

وأخذت أُصلي وأتمنى من صميم قلبي أن يموت «ماجويتش» قبل أن ينفذوا فيه حكم الإعدام.كما أخذت أكتب الالتماسات لكُلِّ شخصٍ في السلطة يمكنه أن يُقدِّر الموقف، وكنت أُعزز هذه الالتماسات بزياراتٍ شخصيةٍ لهؤلاء المسؤولين، أستعطفهم بأن يُعيدوا النظر في تنفيذ هذا الحكم، وأحكي لهم قصَّة شهامة هذا الرَّجل ومدي حرصه علي توبته وصلاحه.

ونتيجةً لبعض الاتصالات فقد سمح لي بزيارة «ماجويتش» كُلّ يوم في مستشفي السجن.كان راقداً علي سريره بلا حراكٍ، يتنفس بصعوبةٍ، وغير قادر علي الكلام، ولكنَّه كان يُعبِّر لي عن فرحته وسعادته بزيارتي

له بمُجرَّد ضغطة ضعيفة من يده علي يدي.وكانت حالته تتدهور يوماً وراء يوم.

«بيب» يكتب الالتماسات لإنقاذ حياة «ماجويتش»

وفي زيارته العاشرة له لاحظت بعض التغيُّر، فقد برقت عيناه بمُجرَّد أن رآني، وقد قال هامساً بصوتٍ خفيضٍ مرتعشٍ:

ـ يا بُني العزيز..إنَّك دائماً أوَّل مَنْ يدخل مستشفي السجن قبل كُلّ الزوار الآخرين!

فقلت له، لأطمئنه وأرفع من معنوياته:

ـ إنَّني أنتظر أمام البوابة لأكون أوَّل مَنْ يدخل عندما يُسمح بالدخول..لا أُريد أن أُضيع ولو دقيقة واحدة من الوقت المسموح به للزيارة.

فقال هامساً في ارتياحٍ:

ـ شكراً لك يا بُني العزيز..بارك الله فيك..إنَّك لم تتخل عني أبداً..

فضغطت علي يده، ولزمت الصَّمت، إذ لا يمكن أن أخبره بأني كنت قد دبرت خطة الهروب لكي أتخلي عنه بعد أن أوصله إلي مكانٍ آمنٍ.

وواصل «ماجويتش» حديثه المنهك هامساً:

ـ من أعظم المواقف التي أُقدرها لك..أنَّك أصبحت أكثر قرباً مني بعد أن اكتنفت حياتي تلك السحابة المُظلمة، مع أنَّك لم تكن قريباً مني إلي هذا الحدّ حينما كانت تسطع الشمس..إنَّ هذا عندي يساوي كُلّ شئ..

وهنا بدأ صوته يضعف، وخارت قوّاه تماماً، وعلت الغشاوة والشحوب وجهه وعينيه، وسحب يدي بضعفٍ شديدٍ، ووضعها علي صدره تحت يديه، وارتسمت علي شفتيه ابتسامةٍ خافتةٍ.

ودق جرس السجن مُعلناً انتهاء الوقت المُحدَّد للزيارة، في نفس الوقت الذي دخل فيه طبيب السجن الحجرة، فهزّ رأس «ماجويتش» ثمَّ نظر إليَّ في حزنٍ.ووضع يده علي كتفي كإشارةٍ منه لكي أبقي في مقعدي ولا أنصرف.وفهمت من ذلك أن «ماجويتش» يحتضر، ويعيش لحظاته الأخيرة.

وعندئذ انحنيت عليه، وقلت له هامساً وأنا أُغالب دموعي:

ـ عزيزي «ماجويتش» أُريد أن أخبرك بسرٍّ عظيمٍ..هل تستطيع أن تفهمني؟

فضغط علي يدي بضعفٍ ليؤكِّد لي أنَّه يستطيع أن يفهم، فقلت:

ـ هل تتذكَّر ابنتك التي كنت تعتقد حتي هذه اللَّحظة أنَّها قُتلت ؟!

فضغط علي يدي مرَّة أخري، فواصلت الحديث:

ـ إنَّها لم تُقتل يا «ماجويتش» كما كنت تعتقد..إنَّها تعيش الآن كسيِّدة محترمة في هذا المجتمع..إنَّها جميلة جدّاً، بل أكثر النساء جمالاً، وأنا أُحبّها من كُلِّ قلبي..

وكانت آخر حركة قام بها «ماجويتش» في هذا العالم، أنْ سحب يدي بمنتهي الضعف ومنتهي الحنان، وقربها من شفتيه وقبَّلها، ثمَّ أعادها إلي مكانها فوق صدره، وازدادت الغشاوة في عينيه، ومالت رأسه، ومات «ماجويتش» !!

كنت دائماً أخش مشاهدة الموت عن قرب، ولكني الآن ورغم حزني الشديد علي فراق هذا الرَّجل الطيب شعرت بالارتياح والهدوء والسلام.ولاحت في ذهني فكرة الندم علي أني لم أكن مخلصاً للصداقة الحقيقية التي كنها لي «جو» زوج أختي، فلا أقلّ من أن أكون مخلصاً لذكري «ماجويتش» .

علي أني لن أنسي إلي الأبد مشاعر الحُبّ الصادق، وهو يقول لي: « يا بُني العزيز» .

❊❊❊❊

الوفاء العظيم
Great fulfilled

أفقت إلي نفسي أخيراً، وأخذت أُفكِّر في أحوالي المالية السيئة، والتي ازدادت سوءاً أكثر من أي وقت مضي، فأنا غارق في ديونٍ باهظةٍ وكان عليَّ أن أؤجر شقتي من الباطن لأنَّها أصبحت غالية التكاليف بالنسبة لي، خصوصاً بعد أن سافر «هربرت» إلي» القاهرة Cairo «في مصر» Egypt ليُدير فرع شركة «كلاريكار» هناك، وقد وعدني «هربرت» قبل سفره بأنَّه علي استعدادٍ أن يمنحني وظيفة في هذا الفرع في أي وقتٍ أُريد.

وعلي أيّة حال لم أستطع اتخاذ أي قرار بشأن مستقبلي لأني سقطت مريضاً.كنت أُحس ببوادر المرض وهي تتسلل إليَّ ببطءٍ، إلي أن مات «ماجويتش» فعندئذ بدأ المرض يشتد وبدأت صحَّتي في الانهيار السريع، وأُصبت بحمي شديدة جعلتني أرقد علي السرير مرتعشاً غير قادر علي الحركة.

وبين حين وآخر كانت تنتابني نوبات من الهذيان فأهبّ من مرقدي وأُغادر البيت متجولاً في الشوارع بلا هدفٍ ولا وعيٍ.

وفي يومٍ من الأيام الكئيبة تلك، تنبهت إلي وجود شخصين بالقرب مني ينظران إليَّ بحزنٍ وأنا راقد علي رصيف الشارع بجوار منزلي، فقلت لهما بصوتٍ مبحوحٍ:

ـ مَنْ أنتما ؟ وماذا تريدان ؟

فقال أحدهم:

ـ لقد جئنا يا سيِّد للقبض عليك بسبب عجزك عن الوفاء بتسديد ديونك المتراكمة.

فصدرت مني آهة مؤلمة، وحاولت القيام ولكني تهاويت، وقلت لهما يائساً:

ـ كان بودي أن أذهب معكما ولكني مريض ولا أستطيع!

فابتعد الرَّجلان عني قليلاً، ثمَّ أخذا يتجادلان معاً، ثمَّ انصرفا. وتحاملت علي نفسي وعدت إلي البيت ورقدت علي السرير مستسلماً للحمي، وأضغاث الكوابيس.ومن شدة حالات الهذيان التي كانت تنتابني كنتُ أتخيَّل جميع الناس الذين عرفتهم وقابلتهم في حياتي، وكأنَّهم جالسون جوار سريري، واحداً تلو الآخر، وعندما تختفي جميع الوجوه لا يبقي إلَّا وجه واحد دائماً هو وجه «جو» .

كنت أتخيَّل أنَّه جالس بجانبي، ويبتسم ليُشجعني، ويمسح وجهي بقطعةٍ من الإسفنج مُبللة بالماء البارد ليخفف الحرارة عن رأسي المترنح..وأفقت في لحظةٍ، فرأيت أمامي نفس الوجه، فقلت بضعفٍ:

ـ هل أنت هنا يا «جو» ؟

فابتسم بفرحٍ، وقال:

ـ نعم يا «بيب» يا صديقي الحبيب.

فانخرطت علي الفور في بكاءٍ مريرٍ.ليس هذياناً هذه المرَّة، وإنَّما هو بكاء صادق يُعبِّر عن إحساسي بالندم.ثمَّ قلت له بشيءٍ من اللَّوعة:

ـ «جو» يا صديقي العظيم..أنا لا أستحق كُلّ هذا العطف منك، لقد أغضبتك، وخنت صداقتنا، اضربني يا «جو» لأني أستحق الضّرب، ولا تعطف عليَّ كُلّ هذا العطف!

ولكن «جو» كان في غاية السَّعادة لأني أفقت وبدأت أستعيد وعيي، واستطعت التعرُّف عليه، فركع إلي جوار سريري، وقال وعيناه مغرورقتان بالدموع:

ـ أنا وأنت كنا ومازلنا أصدقاء يا عزيزي «بيب» ..اهدأ حتي تستعيد صحَّتك وعافيتك..

وأخذ «جو» يرعاني ويمرضني لمدة شهر كامل، إلي أن بدأت أستعيد قوّاي بالتدريج.وكنت أتخيَّل أيام الطفولة في مستنقعات «كنت» وقد عادت من جديد حين كان «جو» يقوم بإطعامي ورعاية شؤون حياتي.

وفي إحدى الأمسيات حين لاحظ «جو» أني أصبحت في طريقي إلي شفاءٍ قريبٍ، أخبرني بأنَّ الآنسة «هافيشام»قد ماتت متأثرة بجروحها.وكما هو متوقع فقد ورثت «ستلا» كُلّ أموالها وممتلكاتها.

وأخبرت «جو» بالتالي بما جري في قصَّة حياتي، وانهيار آمالي العظيمة، واكتشافي أنَّ المُحسن المُتبرع لي بكُلِّ أمواله لم يكن الآنسة «هافيشام»، وإنما هو «آبيل ماجويتش» .

وهنا قاطعني «جو» قائلاً:

ـ لقد سمعت بعض الأخبار عن ذلك، وهذا لا يهمنى بالمرَّة، ومثل هذه الأشياء لا أهمية لها بين الأصدقاء الحقيقيين.

وعلي الفور نهض «جو» ليعد لنا طعام العشاء، وليضع حداً لهذا الموضوع.

وبعد أن أكتمل شفائي استيقظت ذات صباح، فلم أجد «جو» ..لقد رحل في الصباح الباكر، وترك رسالة مليئة بالأخطاء الإملائية كتبها بنفسه بعد أن علمته بيديَّ القراءة والكتابة.

كانت رسالة وداع رقيقة، ورفق بها إيصال بدفع الدين الذي كاد سيتسبَّب في سجني.ويدل الإيصال علي أن «جو» هو الذي قام بتسديد هذا الدين.والحقيقة كنت أظن، بسبب شدة مرضي وغيابي عن الوعي، أنَّ الدائن هو الذي توقف عن اتخاذ الإجراءات القضائية بسبب سوء تدهور حالتي الصحّية.ولم أكن أتصوَّر أبداً أنَّ «جو» قد دفع هذا الدين من ماله الخاص.

ارتميت علي المقعد مُتعباً، وأنا أُمسك بالإيصال وبرسالة الوداع. ودارت في ذهني ذكريات الماضي البعيد السعيد، والهواء النقي الذي

يهب من ناحية النهر، ووجه، الجميل الصبوح.. «بيدي» التي صادقتها ووثقت فيها منذ أن حلت ببيتنا بعد حادث الهجوم علي أختي، وتذكَّرت كم كنت غبياً وأنانياً حين تناسيت كُلّ تلك الأيام الجميلة الحلوة.

ولماذا لا أتزوج «بيدي» وبينما كنت غارقاً في فيض الذكريات هكذا، لاحت في ذهني فكرة هائلة..لماذا لا أبدأ حياة جديدة ؟ ولماذا لا أتزوَّج، ؟ لأتقدَّم إليها وأطلب يدها، وأُعبِّر لها عن ندمي ولأخبرها بصدقٍ أني قد جئت طائعاً، وإني علي استعدادٍ لقبول أي شئ تراه بالنسبة لمستقبلي، فلو أرادت أن أعمل مع «جو» في ورشة الحدَّادة فلن أُمانع. وإذا أرادت أن أحصل علي وظيفةٍ بالقرية أو الريف فسوف أوافق، وسأخبرها بالعرض الذي قدَّمه إليَّ «هربرت» قبل أن يُسافر، فإذا قبلت أن تصطحبني لتعيش معي في» مصر»، فإنَّ ذلك سيكون قمة سعادتي.

وما أن أنقضت ثلاثة أيام حتي أخذت عربة السفر متجهاً إلي «كنت» .كنا في شهر يونيو، وكان الجوّ صحواً، والسماء زرقاء خالية من السحب، والعصافير تطير بفرحٍ فوق سنابل القمح الخضراء.

وعندما اقتربت من البيت لم أسمع دقات مطرقة «جو» المعهودة. وعندما اقتربت من الورشة فوجئت بأنَّها مغلقة، فانتابني إحساس عارم من الخوف.

أمَّا البيت فلم يكن يبدو مهجوراً..بل رأيت ستائر بيضاء تتطاير من خلال النافذة المفتوحة بغرفة الجلوس.وعندما نظرت إلي الداخل من

خلال تلك النافذة رأيت « بيدي» و«جو» وهما يلوحان لي مرحبين بحضوري، وأقبلا عليَّ يُعانقانني بسعادةٍ غامرةٍ.وقالت، :

ـ ها أنت أخيراً يا «بيب» يا أعز الأصدقاء..ليتك قد جئت يوم زفافي، كانت حفلة طيبة، لقد تزوجت أنا و «جو» .

وهنأتها بحرارةٍ، وأنا أخفي خيبة أملي.وقضيت عدة ساعات قبل أن أرحل عائداً إلي «لندن» .

وبعت كُلّ ممتلكاتي، وسويت معظم ديوني، وسافرت إلي «مصر»، وعملت موظفاً بفرع شركة «كلاريكار» مُعاوناً لـ «هربرت» .وكان «هربرت» قد تزوَّج «كلارا»، فعشت معهما في نفس البيت.

وبالتدريج حققت الكثير من النجاح والتقدُّم، فسددت كُلّ ديوني، وأصبحت أعيش حياة بهيجة طيبة معتمداً علي نفسي، وكنت أكتب الرسائل إلي «جو» و«بيدي» بين حين وآخر.

وبعد عدة سنوات أصبحت شريكاً كاملاً في شركة «كلاريكار». ويمكنني أن أقول أنَّ شركتنا كانت تُعتبر من الشركات الكبري، ولقد حققنا أرباحاً كبيرةً، وفوق هذا كُلّه كانت لنا سمعة طيبة للغاية .

وفي يوم ما لم يستطع «كلاريكار» أن يستمر في الاحتفاظ بالسرِّ الذي بيننا فاعترف لـ «هربرت» بأني أنا الذي دفعت حصّة اشتراكه في رأس مال الشركة، وإني أنا الذي أوصيت عليه ووظفته منذ البداية.ومن أجل ذلك ازداد حُبّ «هربرت» لي، وازداد تقديره لصنيعي الجميل.

دائماً أنتِ في قلبي
You are always in my heart

وبعد إحدى عشر سنة عدت إلي «إنجلترا» مرَّة أخري.

وفي أحد أيام شهر ديسمبر، بعد حلول الظلام بنحو ساعة كنت أدخل من خلال باب المطبخ في البيت القديم بمستنقعات «كنت» .

كان «جو» جالساً علي مقعده جوار المدفأة يُدخن غليونه في هدوءٍ. وعلي نفس الكرسي الذي كنت أجلس عليه في طفولتي كان يجلس «بيب» الصغير.

قفز «جو» من مقعده واندفع نحوي يحتضنني ويُقبلني، وجاءت «بيدي» في عجلٍ وأخذت تُقبلني وتبكي من شدّة الفرح بعودتي، أمَّا «بيب» الصغير فقد تراجع وهو يشعر بشيءٍ من الخوف والدهشة.

ولكن لم تمرّ سوي أيام قليلة حتي أصبحت أنا و «بيب» الصغير أصدقاء أعزاء، فكنت أصطحبه لنزهاتٍ حول المستنقعات، كما زرت معه مقابر الأسرة..وتذكَّرت مشاعري الخاصَّة عندما كنت في مثل سنه وأنا ازور هذا المكان في الماضي.

وعندما حلّ موعد رحيلي إلي «لندن» لاحظت أنَّ «بيب» الصغير أصبح يُحبّني ويتمسك بي، تماماً مثلما كنت أُحبّ وأتمسك بأبيه «جو» في الماضي.

وظلّ «بيب» الصغير يلوح لي مودعاً إلي أن غبت عن نظره.

ولكن قبل أن أُغادر «كنت» كان عليَّ أن أزور موقع بيت الآنسة «هافيشام».كان مُجرَّد أطلال محترقة، ولم يبق من البيت شئ سوي الحديقة التي ملأتها الأعشاب وبقايّا البوابة الحديدية.

دائماً أنتِ في قلبي

وجلست علي كتلةٍ من الحجر، واستسلمت لذكريات الماضي البعيد، ذكريات «ستلا»، وكنت قد علمت بأنَّها عاشت حياة شقية غير سعيدة مع زوجها «بنتلي درامل» .لدرجة أنَّها هجرته وكانت تعيش منفصلة عنه، كما علمت أنَّه لقي مصرعه في حادثةٍ، ولكن ذلك كان منذ عامين ولعلّ «ستلا» قد تزوَّجت الآن مرَّة ثانية.

وظلت الذكريات تطوف بذهني وأنا أتجوَّل بين أعشاب الحديقة وبين الأطلال المهجورة التي تهب عليها لفحات من برد الشتاء.

وفجأةً لمحت طيف امرأة كانت تقف وحيدة متأملة في ضوء القمر، فاقتربت منها لأعرف مَنْ هي.وعندما سمعت وقع خطواتي التفتت نحوي، ويا لهول المفاجأة!!

صحت وأنا أندفع نحوها:

ـ ستلا!

فقالت بنعومةٍ:

ـ «بيب» ! هل عرفتني ؟

لقد زوي بريق شبابها، ولكنَّها ما زالت محتفظة ببهاء وعظمة جمالها.واختفت نظرة التعالي من عينيها، وحلَّت محلَّها نظرات هادئة حزينة.

وسألتها:

ـ هل تحضرين إلي هنا دائماً يا «ستلا» ؟

فقالت:

ـ لا! إني أحضر إلي هذا المكان لأوَّل مرَّة بعد حياة طويلة..إنَّ هذا المكان هو آخر ممتلكاتي وقد بعته، وجئت لألقي عليه نظرة الوداع الأخيرة..ولكن قل لي هل ما زلت تعيش في الخارج يا «بيب» ؟

وأخبرتها بالنجاح الذي حققته، وبأني أصبحت شريكاً كاملاً في شركة«كلاريكار»، فبدت سعيدة لذلك.ثمَّ قالت وهي تبتسم في رقةٍ:

ـ كنت أُفكِّر فيك أحياناً، وجاء وقت كنت ألوم نفسي لأني تجاهلت حُبّك الصادق..أيام غروري وجهلي..ولكني الآن احتفظ لك بمكانٍ عزيزٍ في قلبي.

فأمسكت بيدها، وقلت:

ـ ولكنكِ كنتِ دائماً في أعز مكان بقلبي.

الفهرس

مسلسل	الموضوع	رقم
المقدمة		3
تقديم		5
الفصل الأول	مغامرات طفل خائف	15
الفصل الثاني	فطيرة عيد الميلاد	21
الفصل الثالث	القبض علي السجينين الهاربين	27
الفصل الرابع	في بيت المرأة الحزينة	33
الفصل الخامس	أولي القبلات، والجنيهات الذهبية	45
الفصل السادس	الحب يعرف الطريـق إلي قلبه	51
الفصل السابع	الـثروة التي هبطت من السماء	57
الفصل الثامن	حياة جديدة في لندن	65
الفصل التاسع	زيارة غير مرغوب فيها!	71
الفصل العاشر	قلبٌ من حجر!	77
الفصل الحادي عشر	الصدمة المروعة، والوهم الكبير	85
الفص الثاني عشر	مأزق الرجل الذي منحه كل هذا الحنان	93
الفصل الثالث عشر	لغز المرأة القاتلة!	99
الفصل الرابع عشر	نار الندم	107
الفصل الخامس عشر	الأسرار بدأت تتكشف الواحة تلو الأخري	113
الفصل السادس عشر	هروب لم يُكتب له النجاح	119
الفصل السابع عشر	المحاكمة، والوداع الأخير	125
الفصل الثامن عشر	الوفاء العظيم	131
الفصل التاسع عشر	دائماً أنتِ في قلبي	137

مُعد ومُقدم الرواية

• وفيق صفوت مختار

• حاصل على ليسانس الآداب والتربية، جامعة أسيوط، كلية التربية بسوهاج.

• حاصل على الدبلومة الخاصَّة في التربية وعلم النفس، جامعة أسيوط، كلية التربية بسوهاج.

• عمل مُحرِّرا صحافيًا بمجلة «هو وهي»، ومجلة «دُبي الثقافية».

• فاز بجائزة الشيخ «عبد المبارك الصباح» للإبداع العلمي عن نتاجه- «المُخدرات وأثرها المُدمِّر»، عن دار «سعاد الصباح» بدولة الكويت.

• سجل للتلفزيون المصري العديد من الحلقات في عدة برامج.

• تناولت جريدة الأهرام القاهرية كتابات المؤلِّف بالعرض والتحليل في باب «المرأة والطفل».

• تُرجمت بعض مقالاته إلى اللغة الإنجليزية.

• الكتب التي صدرت للمؤلِّف:

1- مشكلات الأطفال السلوكية، القاهرة: دار العلم والثقافة، 1999م.

2 – أبناؤنا وصحَّتهم النفسيَّة، القاهرة: دار العلم والثقافة، 2001م.

3- المدرسة والمجتمع والتوافق النفسي للطفل، القاهرة: دار العلم والثقافة، 2003م.

4 – سيكولوجية الأطفال ضعاف العقول، القاهرة: دار العلم والثقافة، 2005م.

5 – سيكولوجية الأطفال الموهوبين، القاهرة: دار العلم والثقافة، 2005م.

6 – الأسرة وأساليب تربية الطفل، القاهرة: دار العلم والثقافة، 2005م.

7 – مشكلة تعاطي المواد النفسيَّة المخدرة، القاهرة: دار العلم والثقافة، 2005م.

8 – سيكولوجية الطفولة، القاهرة: دار غريب، 2005م.

9 – بستان المعرفة، القاهرة: دار موناليزا، 2007م.

10 – كتب ومكتبات الأطفال وتنمية الميول القرائية، القاهرة: دار الطلائع، 2009م.

11 – فن رعاية الطفل في البيت والمدرسة، القاهرة: دار الطلائع، 2009م.

12 – سيكولوجية الأطفال ذوي الاحتياجات الخاصة، القاهرة: دار غريب، 2010م.

13 – وسائل الاتصال والإعلام وتشكيل وعي الأطفال والشباب، القاهرة: دار غريب، 2010م.

14 – تأخر الكلام عند الأطفال، القاهرة: دار البطوسي، 2010م.

15 – النمو الحركي للطفل وأهم الأنشطة الترويحية والمدرسية، القاهرة: دار الطلائع، 2011م.

16 – الصحَّة النفسيَّة وأساليب تنشئة الطفل... أُسريًّا، وتربويًّا، ومجتمعيًّا، القاهرة: دار الطلائع، 2012م.

17 – الموسوعة الأدبية الكبرى: أشهر المبدعات في التاريخ العالمي، القاهرة: دار الطلائع، 2013م.

• للتواصل مع المؤلِّف:

هاتف منزل: 4774608/ 093

هاتف محمول: 01063549339

E-mail: Wafeek. safwat@yahoo. com